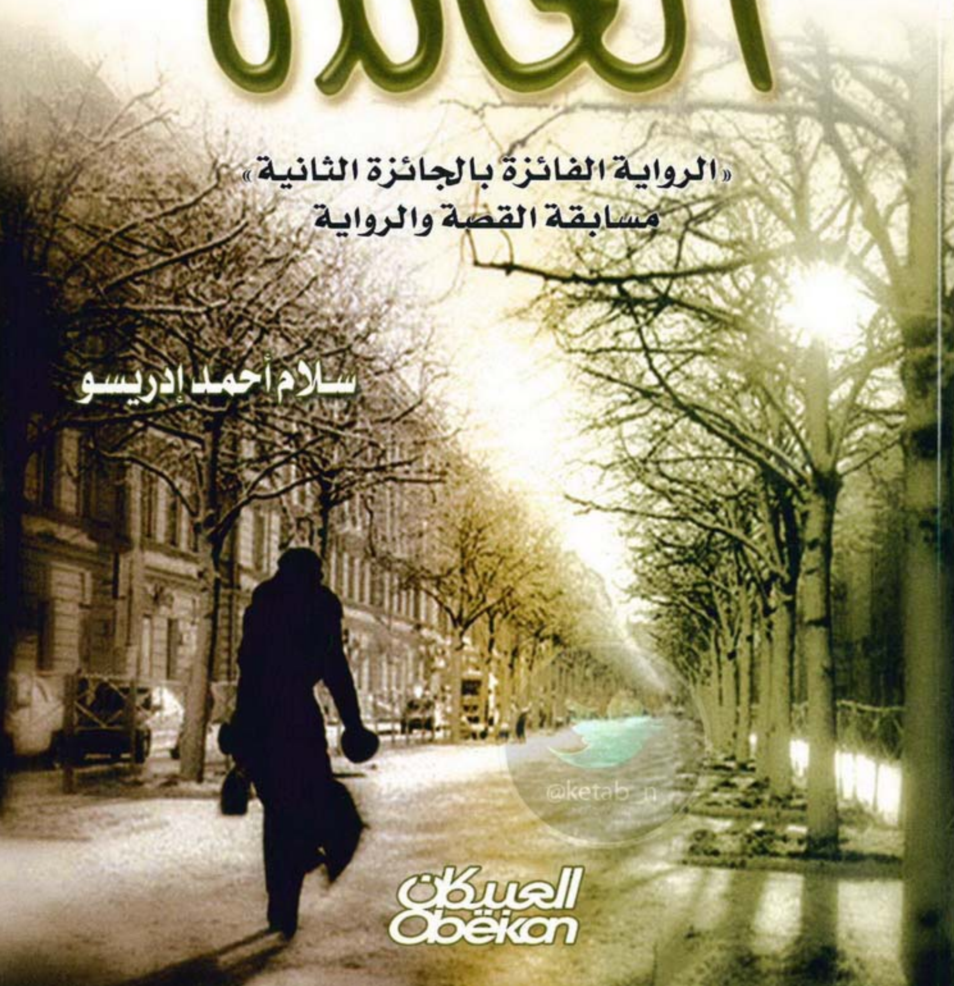
الطبعة الثالثة

رابطة الأدب الإسلامي العالمية
INTERNATIONAL LEAGUE OF ISLAMIC LITERATURE

رابطة الأدب الإسلامي العالمية
مكتب البلاد العربية
(١١)

العائدة

«الرواية الفائزة بالجائزة الثانية»
مسابقة القصة والرواية



سلام أحمد إدريسو

العبيكان
Obeikan

رَابِطَةُ الأدب الإسْلامي العالميَّة
مكتَب البِلاد العَربيَّة
(١١)

العائدة

«الرِّواية الفائزة بالجائزة الثانية»

في مسابقة الرِّواية

سلام أحمد إدريسو

العبيكان
Obeikan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إدريسو، سلام أحمد

العائدة: رواية./ سلام أحمد إدريسو - ط٣ . ـ الرياض، ١٤٢٩هـ

٢٥٨ ص؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٢ ـ ٥١٧ ـ ٥٤ ـ ٩٩٦٠ ـ ٩٧٨

١ ـ القصص الإسلامية ١ ـ القصص العربية أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠٨٨ ٣٦٦١ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ٣٦٦١ / ١٤٢٩

ردمــــك: ٢ ـ ٥١٧ ـ ٥٤ ـ ٩٩٦٠ ـ ٩٧٨

الطبعة الثالثة الخاصة بمكتبة العبيكان

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ /٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمــز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ /٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمــز ١١٥٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المشهد الأول

- زينب.. زينب..

- فيديو.. فيديو.. فيديو.. فيديو

كنَّا مُصرّتين على الإلحاح رغم إعراض زينب الطويل، فكانت هذه الكلمات المتوجة بالفتنة والغرابة تتسابق إلى الهروب من شفاهنا الغضة في إيقاع منتظم زاخر بالتصميم. الصوت الأول وهو صوتي - لبث دوماً هو الأقوى، أما نبرات أختي كريمة فقد كانت رغم عجزها عن ملاحقتي، هي الأشد تنكيلاً بصبر مربيتنا زينب. كان صوتها المترع بالدلال - كأي شيء في هذا البيت - يبدو أقرب إلى الاستغاثة منه إلى الصراخ، ولكن ماذا نفعل؟! إن زينب أيضاً تبدو دائماً وكأنها قدَّت من عناد الصخر...

أنعِم بالحياة حين تتجلَّى من منظار طفلة لم تتجاوز السنوات السبع! يكون الافتتان بالأشياء حينئذ انتماء للحياة وبناء لها. ويكون اختزال الزمن في الأفراح شيمة العمر. في ذلك الزمن الأبيض، لم يكن غريباً أن يظل صخبنا يتردد بإيقاعه المنتظم بلا هوادة، وبنشاط أقوى من اهتزاز أجسامنا المترعة بالنعيم. ذلك الطفل البليد لم يكن يشاركنا ضجَّتنا الصاخبة، كان يجلس صامتاً منعزلاً. تُغلِّفه هالة من التَّوق إلى شيء ما، كان ذلك واضحاً في عينيه. على الأقل بالنسبة إليَّ أنا: أنا التي جئت إلى هذه الدنيا لأجده في انتظاري، طفلاً

صامتاً يعيش الشرود في عينيه، كأنهما ساحل مهجور في مكان قصي من هذه الأرض. وهكذا. كان يثير في نفسي وبحالته تلك، إحساسين متناقضين: إحساس بالحنق الساذج، يشعل الصمت واللامبالاة، وإحساس حزين يشعل الشرود.

هذا هو حسام. ساكن، حزين، مفعم القسمات بشيء غامض لا أفهم له معنى.

تطل من شفتيه الجادتين ابتسامة شاحبة. عامر بالتعالي، هكذا كنت أراه - كرجل صغير وحتى بشرته القمحية وعيناه السوداوان تختلفان عن بشرتنا البيضاء الناصعة وعيوننا الخضراء. فيديو.. واقتربت منه والنفس زاهية بالاستعلاء:

- هيا اصرخ معنا.. لم يجبني. لبث ينظر إليّ، وأنا أحاول عبثاً جرّه إلي:

- يا لك من ثقيل ! هلمّ.

- لا، أحب فقط أن أنظر إليكما..

يا له من طفل عنيد! همست في حنق. وتذكرت شيئاً جديراً بالإغراء فجذبته من يده مرة أخرى:

- هيا اطلب معنا شريط سندباد في البحر..

- لا، أنا أحب البحر الحقيقي..

تركته حانقةً، وانضممت إلى كريمة...

فيديو.. فيديو.. فيديو.. حقاً إنه يحب البحر الحقيقي. عرفت ذلك منذ زمن ولكنني رافضة لذلك. يشهد بذلك منظر الطفل الجامد بشاطئ البحر كمن ينتظر شيئاً ما. ويشهد بذلك أيضاً حُداء الأمواج الرائع بجوار بيتنا: ذلك البناء الضخم الجاثم بجداره الحجري على الصخر. وحيداً. منعزلاً يحيط نفسه بسور عالي القامة ضخم الحجارة. بينما يطوقه النخيل الباسق في شكل مستطيل من الأركان الأربعة. هكذا تبدو من الخارج أجساماً عملاقة تطل وتشرق برؤوسها العالية كحراس غلاظ لا تأخذهم سنة عن حراسة البيت، فيديو. سندباد. فيديو سندباد.. وأخيراً جاءت زينب، بقفطانها الواسع وهي تتأفف من صراخنا العنيد:

- ما هذا؟ ما هذا؟ ماذا تريدون أيها العفاريت الأشقياء..

صرخنا في وجهها ونحن نفقز حولها فرحين: فيديو.. فيديو.. فيديو..

وصرخت باستغاثة:

- آه منكما. لقد تعبتُ معكما، تعبت. أما تشبعان من هذا الفيديو اللعين؟

وتمادى صراخنا بغير تراجع أو تفكير في العقاب. وأي عقاب؟!، وصرختْ فينا بنفاد صبر:

- سمعنا.. سمعنا وأطعنا..

واتجهت نحو جهاز الفيديو وهي تغمغم في غضب واضح:

- ولكن ماذا أفعل؟ الظالم يجازيه الله. اللعنة. اللعنة..

وها هي الفتنة تتبجس من الشاشة الصغيرة المربعة. الحركة واللون والأصوات. انحشرنا في أطيافها الرجراجة الصافية وهذا كل ما كنا نتمناه. أن نتيه في إمارة الألوان المتسطلة. في الحكايا التي كم نتمنى ألا ننفك عنها، وقد كانت كل رصيدنا من وعي أجزاء الوجود. وبرغم ذلك فإن كائناً آخر كان يطلبني؟ ويثيرني؟ كنت بين اللحظة والأخرى ألتفت إلى ناحيته. تجذبني فيه تلك السمة الطاغية التي تحنقني، وأحياناً تخيفني.. التأمل في شيء غير محدد. ثمة روح سكنتني؟ فجريت نحوه بلا مناسبة. بادرته بحدَّة ضاحكة:

- ماذا تحب؟ مالك هكذا؟

وأجابتني ابتسامته الشاحبة.

- أنت لا تحب شيئاً..

قلتها باستهانة الأطفال، وأنا أدفعه في صدره انتقاماً منه - ثم جريت إلى مجلسي الأول أمام جهاز التلفاز. كان عليّ أن أقول شيئاً كي أنفس عن صدري الضيق، فضغطت صارخة - في السر - على الحروف: نيكرو..

كنت سأفرغ عليه كل غضبي الطفولي المشبع بالدلال والاستعلاء.. ولكن ماذا أفعل؟! لقد كان صلداً، عنيداً، هادئاً كما يفعل

الكبار.. أفرغت نفسي المهتاجة في أحضان الشاشة الزاخرة بالألوان والحركة والحياة..

وأصبح سندباد والبحر سيد الوجدان، . . كما أصبح حسام خارج أسوار الفكر. ولكن الزمن تمثل لي شريطاً يتواصل في بطء شديد، فثمة فراغ ممل لم تستطع أطياف اللون والحركة والأسطورة طرده من كياني. . وثمة انتظار كاسح كان لا يفتأ يحفر لنفسه أخاديد في قلبي اليافع الوليد. ولكن أين الخلاص؟! فهذا المنزل الضخم العامر بالنعيم. والخضرة وزينب، والحمام. ومهرجان الورد وفضاء المحمدية المؤتزر بالهناء. . كل ذلك لم يكن ليشفع لي أمام الملل، وتواصل الزمن في انسيابه البطيء.. حتى اقتربتْ مني أختي كريمة لتشاركني نفس الإحساس.

- ربا.. أريد ماما. . أين بابا؟

كانت نبراتها الرقيقة الواهنة تنم عن الملل بجلاء. . لم تكن مع ذلك، تبشر بأية نصرة أو أنس حقيقي.. ولكن وجدت فيها الرفيق على أية حال، وبادرتها بضيق:

- صحيح. . أين ماما؟

- أريد ماما..

- صحيح أريد ماما..

وصحنا معاً بلا سابق اتفاق..

- نريد ماما.. ماما.. ماما..

- ليتها تأتي لأرتاح منكم أيها الأشقياء..

جاءنا صوت زينب محتداً من الوراء..

* * *

- طلبتم الخروج، فأخرجتكم إلى الشاطئ.. طلبتم الفيدو فشغلته لكم.. ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ ماما؟

- نعم نريد ماما.. نريد ماما!

قالت بسخرية وشيء قليل من الشفقة:

- ماما؟ اطلبوها على عنوان الانتخابات..

لم نفهم طبعاً..

- هه! لماذا تنظرن إليّ هكذا. لم تفهما؟

زعقت بعصبية:

- تباً للانتخابات.. هي سبب ما أنا فيه.

- تباً للحرية ولو كانت من طرف الحاج..

ورددنا معاً. لكن بدون إدراك:

- تباً للحرية ولكن نريد ماما..

وسمعتها تغمغم بينها وبين نفسها:

- بل تباً لمن فضّل نفسه على الأمومة..

لا تفسير لي لذلك. أصبح الغائب حاضراً والحاضر غائباً. توارت سلطة الشاشة العابقة بالفتنة والغرابة.. وتداعت علينا أشواقنا - أو قل حاجتنا - إلى أمنا ولو من غير دم ولحم. أين ماما؟ أين ماما؟ لا أحد غيرها الساعة يلح على الخيال الطفولي الطافح بالعطش إلى أنيس حقيقي. لعن الله الحرية كما اللعنة على الانتخابات. ما معنى الحرية وما معنى الانتخابات؟

وجهها الناطق بالكراهية قال لي إن اللعنة شيء لا يسر. وصرخنا أنا وكريمة بلا سابق موعد:

- زينب.. زينب..

- ماما.. ماما.. ماما.. ماما..

- زينب.. ماما.. زينب.. ماما..

بيد أن زينب كانتْ جامدة كشيء بلا روح. بدا عليها أنها يئست منا أو من أمنا. كانت تنظر إلى موطىء قدميها في إعياء وضجر. وأحياناً كانت تنظر إلى الطفل المطوق بالصمت وأشياء أخرى. وفجأة التفتت إليّ بتودد لطيف:

- اسمعي يا ربا، أنت أعقل من كريمة. خذيها واذهبا إلى النوم.

- لا نذهب. ولا ننام.

- الله يرضى عليك. اذهبا.

ولكنني ذهبت إلى جوار حسام. رنوت إليه بغيظ وهو يرسم شيئاً ما على الأوراق.

- قل لي أنت. ما معنى الانتخابات؟

لم يلتفت إليّ. ولكنه قال بدون اكتراث:

- اسألي زينب..

- بل أسألك أنت..

قاطعته بنبرة تستبطن الأمر والاستعلاء..

- ولا أنا أفهم معناها..

- كذاب..

كان يضع فوهة قلمه بين شفتيه، لم يبد عليه أنه تأثر لجفائي. أما أنا فقد قررت أن أجمد في موقفي حتى ينطق حسام. قال بعد صمت:

- قال لي أحد الفلاحين إنها الصعود إلى سطح البيت من السلم الخلفي..

- كذّاب أيضاً..

- طيب..

وعاد إلى أوراقه تاركاً إياي بين فكّي حيرة حقيقية. تساءلت. فكرت وقدرت. تساءلت مرة بعد المرة ثم عجزت. أخيراً تواريت خلف قناع العناد وخاطبته آمرة:

- وما معنى السلم الخلفي؟!

المشهد الثاني

كنت أحسب أنه في الإمكان تعقب خطوات الشمس. ذلك القرص الهائل الغارب في سبيله إلى الهاوية. هذا، كان ممكناً حينما كنت أتتبع ممشاها من الأرض، وأنا أركب حمار الحسين. أما الآن فلا، إنها تقصد هدفها فوق المياه إلى قاع المحيط. وقح ذلك المحيط!.. إن أمواجه الزبدة لتتطاول في جراءة، حتى تضرب بألسنتها الطويلة مملكة أبي. تراجعت بضع خطوات كي أتحاشى شظايا الماء، وهي تتطاير بالقرب من قدمي بعد ارتطام الموج على جسد الصخرة العالية. كنت أود الجلوس أكثر لكن ها هي الشمس تستحم في مياه البحر. وها هو الظلام تتراءى طلائعه من بعيد. التفت إلى الخلف فتراءى إليّ بيتنا الكبير، وهو يرفل في غلالة عائمة من الأنوار الصامتة الصفراء. إنها تباشير التعب بعد سفر طويل في أطباق السماء. لا تزال أشجار النخيل الفارعة الطويلة تبدو وكأنها كائنات عملاقة، تعمل- وراء الجدار الحجري- على حراسة الأرض المحيطة بنا. ولكنها الآن تبدو وكأنها إكليل تلميذ، وضع على صدر البيت احتفالاً بشيء ما. لشد ما تشربت نفسي الغضة ذلك الهدوء! ولكن أي هدوء؟ هذا الذي يشاركني فيه حتى أولئك الفلاحين القذرين الذين تجثم أكواخهم الضعيفة كالذباب حول ضيعة أبي. هكذا تساءلت بضيق. ونفسي ترزح تحت ضغط الإحساس بالاستعلاء على الخلق والكائنات. هربت إلى الأمس باحثة عن تعويض:

قالت لي أمي عزيزة وهي تقترب مني بوجهها الفياض بالنضارة:

- لا عليك يا عزيزتي، عندما ننتقل إلى الرباط ستلتحقين بمدرسة خاصة.

- وهل سننتقل إلى الرباط؟..

- أكيد، وهل يعجبك البقاء في هذه الجزيرة المتخلفة؟..

كانت تقصد أرض أبي الواسعة، وهذا البيت المنعزل بجلاله القديم. أخذني الحديث عن العوالم السعيدة. فبادرتها مستفهمة بفرح:

- ومتى سننتقل إلى الرباط؟..

- حين ينجح أبوك في الانتخابات..

- وما هي الانتخابات؟

بدت مرتبكة بعض الوقت. استدركت ضاحكة:

- هي الانتقال إلى الرباط..

* * *

بدا أنني اقتنعت. ولكن كيف وأنا لم أفهم ؟ استعمرتني العوالم الجديدة استعماراً فاندهشت لها اندهاشاً. قفزت إلى صدرها المطوق بالسلاسل، وسأتعلم الرقص؟ قالت وهي تمسح شعري:

- أجل.. أنتِ وأختك كريمة..

أصبح الرضى لي سيّداً، فعانقتها:

- وحسام؟

- لا فحسام لا يحب الرقص..

قالت ذلك وهالة من السهوم تطوق عينيها المشريتين بخضرة غامقة.. قام الصمت بغزو المكان،. ولكنه لم يصمد أمام غارات الأسئلة.

- إنه ليس أخي.. أليس كذلك يا ماما؟!

مرة أخرى غزانا الصمت.. وحطّت أسراب الحزن على تفاصيل وجهها الأبيض..

بزغ أمام لساني سؤال غريب؟ فالتقطته بلا وجل أو تردد:

- قال الحسين إن أمه ذهبت إلى البحر..

- ماما.. ولماذا ذهبت إلى البحر؟..

- ماما.. وهل ستعود؟

- وكيف؟

تخلصت مني بهدوء ولكن فضحها الاستياء فقالت بلهجة أخافتني:

- لماذا كل هذه الأسئلة يا ربا.. ماتت كما يموت كل الناس.

* * *

ترى.. أيموت هذا النخيل الضارب طوقه حول بيتنا؟. . لقد اقترن في وعيي الموت مع الخراب. كنت لا أزال ملتفتة إلى منزلنا في ذلك المساء العليل، حينما اكتشفت أن تلك الغلالة المصفرة من أشعة الشمس الغاربة، قد تحدثت رويداً، رويداً، إلى هالة وردية شفافة تأخذ بأعتاب القرميد الأخضر.. وأن ذلك الهدوء قد انقلب إلى سكينة خاشعة تستأثر بمجامع قلب فتيّ كقلبي.. شعرت بالحب الكبير لهذا البيت المحاط بالعزلة والجلال والمهابة. ولكن أنامل الأشواق والإشفاق تسربت ببطء إلى تلابيب نفسي، أنا أحب السفر إلى الرباط.. ولكنني أعشق منزلنا: هذا الذي اتخذ مجلسه بين البحر والأرض..

تراءت لبصري عن كثب الطريق المزدوجة، الرابطة بين الدار البيضاء وبين معقل الأحلام كانت تستقبل بعارضيها، وحدات السيارات والشاحنات عن يمين وشمال. تمر خاطفة أو بطيئة. فيوحي إليّ انسيابها بشعور لذيذ له طعم السفر. أو طعم شيء لا أستطيع تحديده بالضبط، تأملت أشباح السيارات وهي تغيب في جوف الأفق في اتجاه الرباط.. فكان ذلك الاختفاء المشيع بالأضواء الحمراء، يقذفني بشواظ من الدهشة بقدر ما يبعثه في نفسي من لذّة، مثلما كانت تبعثه في أعماقي حكاية حسام المجهولة من دهشة وخوف ورغبة كاسحة مضطربة متطلعة لمعرفة قاعها الغارق في الضباب.. أما أبي فلم يسمح لي بالذهاب بعيداً في الأسئلة.. مما هيج في أعماقي تلك الرغبة المتوعدة، بيد أن ذلك الهيجان بقي ملتاعاً،

مستعراً مع الأيام.. عرفت أن تلك النظرات الصامتة تتكلم عن حزن، مسكوت عنه، وأسرار لا قبل بها لطفلة ساذجة كريا.. ولكن، لم لا أحاول سرقة بعض المكنون من حسام؟!

- أنت لا أم لك..

- بل عندي..

- لا. . أمك أنت ماتت.. هكذا قالت أمي..

- لا. . بل عندي..

بادرته في تحدٍّ:

- إذن، فدلني عليها..

- نكس برأسة إلى الأرض؟.. كانت عيناه تذرفان؟..

- أنت كذاب دائماً..

لا جواب

- لماذا لا تجيب، عن أسئلتي؟

وانفجر في وجهي باكياً كالطوفان:

- أنت أنانية يا ربا.. أنت متكبرة.. أنت قاسية..

وجرى بعيداً عني إلى الشاطئ. كنت أضحك منه بسرور.. بيد أن إشفاقاً طارئاً داهمني حتى اعتذرت، ومنذ ذلك الصيف لم أدق أبواب المجهول. ولم أفكر بفتح باب الأفق الذي ولّى...

كان الكون كله قد تدثر في رداء غامق يميل بسرعة بطيئة إلى السواد، فقفلت راجعة إلى البيت.. مررت بزينب وهي منهمكة في إعداد فطائر المساء.. تأملت وجهها الأسمر وقد انعكست عليه أضواء النار المتوهجة في فم الفرن.. فلم يكن يحكي، غير الانشغال بما في اليدين،. . دلفت إلى الداخل وعندي رغبة في أخذ حمام ساخن، فعدت إلى زينب.. أبديت لها رغبتي، فصدتني برفق معتذرة بإعداد الفطائر. ولكن ما العمل؟ ربما هي ربما عنيدة كجبهة الفرن. التفتت إلي زينب هامسة بحدّة:

- ماذا أتقي فيك؟ عنادك أم طلباتك؟ ثم قولي لي، ماذا أقدم للضيوف حين يحضرون؟ هل أدخلهم الحمّام؟ اللهم الرحمة. الرحمة من أولاد الصيدليات..

سرني أن أثير غضب زينب الطيبة:

- ومن هؤلاء الضيوف؟

- الله وأبوك الحاج أعلم..

- وهل عددهم كثير؟

تجاهلت سؤالي. فتجاهلت تعبها:

- ولماذا يأتون هذا المساء؟..

نفد صبرها وها هي تصيح لكن بنبرات خفيفة:

- لكي يتعبوا قلبي بطلباتهم. كي ينفخوا رأسي بشهواتهم. كي يوصلوني إلى القبر إن شاء الله.

هه! هل شبعت من تقييد المقال؟!..

ضحكت عالياً. ودخل علينا الحسين، - الحراث والحارس للأرض والبيت- كان ضحوكاً فلم يُبال هو الآخر بمللها. اقترب بجسده الفارع منها فبدا في تمام العافية. وانعكست أضواء النيران الأرجوانية على جلبابه الصوفي فبدت مشتعلة بالحنّاء. بادر زينب بالتحية. مساء الخير يا أصحاب الدار. أجابت كمن تنفض عنها ثقلاً. كان يعرفها جيداً فخاطبها ضاحكاً:

- صبرك يا بنت الداودي. صبرك.. فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى يجلس الحاج على كرسي الأمر والنهي..

أجابته في أسى واضح:

- بعد أن تكون بنت الدودي شارفت على الهلاك تحت أرجله الملعونة..

- وماذا فيها؟ السويسي، على حساب الحاج..

عقبت على قوله الساخر وهي تضع آخر فطيرة على الصينية النحاسية:

- كفاك سخرية واحمل معي هذه الصينية إلى الداخل..

قال الحسين بنشاط: بسم الله. وسارع إلى وضعها على رأسه. فارتفعت الصينية إلى الأعالي، حتى هالني طوله الذي جاوز الحدود. تقدم نحو الأدراج خطوات. ثم تراجع إلى الوراء متسائلاً بحذر:- وهل الحاج موجود؟..

- كلا، غير موجود.. ادخل..

- ولا عزيزة؟..

- أيضاً بالسلامة.. ادخل.

- الأمان. الأمان؟!!

- أجل، فالدار هذه الأيام خاوية كقلبي..

وقهقه الحسين ملء فيه.. فتردد صوته القوي بين أشجار الليمون، وتقدم نحو الباب الخشبي الكبير وهو يقهقه بلا تحفظ:

- زينب، هي زينب،.. لا تتغير كشجرة سيدي مسعود..

- الحمد لله على القسمة..

* * *

ومن قبل كنت قد اخترت مكاناً لأجلس فيه فجلست. سرَّني ما دار بينهما من حديث شائق فهمت بعضه وغاب عني كثير من معانيه.. آثرت المكوث حيث كنت، بعد أن ساد الصمت على المكان، فجمعت رجليّ كليهما إلى صدري وأنا أجيل بصري في حديقة البيت العلوية بإسراف، امتلأت رئتاي برائحة الفطائر، كانت سيارة أبي المرسيدس واقفة في مربطها كما كان يسميه.. بيضاء فخمة تليق بفلاّح يصدِّر الطماطم والسويهلة إلى الخارج. وأما أشجار الليمون فقد اتخذت سبيلها بين جذوع النخل الباسقة، كأنما هي مقدمة على بناء سور آخر لكن من خضرة ونبات.. وأما الأرض. فقد اتخذت لها من أنواع الزهر لباساً

تحتمي به من نظرات المتطلعين. كانت على الركن الأيمن خميلة من مسك الليل سميتها مجلس حسام- كانت مكانه المفضل- وأما على الركن الأيسر، فقد جعلته أمي مجلساً تتخذه العائلة مكانها الأثير للسمر خصوصاً في ليالي رمضان؟ فصُفَّتْ على جوانبه متكآت الصوف، كما غُطّيت أرضه بزريبة غامقة اللون،.. في حين، تشابكت دالية العنب فوق سماء المجلس لتصنع في الأخير سقفاً مخضراً زاخراً بالعطاء غداة موسم الجني؟.. تتبعت كل ذلك، ثم استرجعت بصري إليّ..

كنت لا أزال عامرة الوجدان بما دار بين زينب والحسين من حديث نال من الجد والهزل حظه الوافر.. أما زينب فقد كانت - هكذا دائمة الثورة ولكن ما أطيب الأعماق!! الكل يعرف سريرتها وبياض قلبها. كانت أمي عزيزة تثق فيها أيما ثقة. فأطلقت يدها في شؤون البيت بما فيه.. خصوصاً أنّها كانت - أي أمي عزيزة- لا تستقر في البيت إلا في المساء.. كانت تشفق على زينب لحظّها العاثر.. فقد زوجها أبوها من شاب يمارس حفر الآبار مثله. ولكنه مدمن على الحشيش.. مات أبوها ليتركها بين يدي رجل لا يستفيق من الذهول، اضطرتْ إلى العمل، فاستقبلتها أمي قبل أن نأتي نحن إلى الوجود.. كان محفوظ يقسو عليها ويضربها غالباً حتى أرغمه أبي على تطليقها، وطوح به في سجن القيادة انتقاماً أو إصلاحاً، ثم أشفقت عليه زينب فتوسلت على أبي كي يطلق سراحه ففعل وهو يقول له: (اذهب أيها البغل إلى العسكر فأنت لا تصلح إلا له).

كانت شابة، مكتملة الصحة، ناضحة بالحيوية، زادها في حيويتها قوة بنيانها، فكأنما قُدَّتْ من الصخر.. وكان بإمكانها أن تتعلم بسرعة كل شيء، أو هكذا كانت رغبتها ربما لكي تتجاوز انكسار حياتها الأولى.. فأتقنت في شهور ما قد تعجز عنه النساء القرويات في مثل سنها - وكانت لم تتجاوز الثلاثين - بيد أن أمي كانت على رضاها عن هذا الذكاء الفطري المتقد توصيها دائماً بقولها: (غير أنني أعتمد عليكِ في مراقبة الأولاد فكوني لهم العين الساهرة) وقد كانت..

فلو سئلت الأشياء والأشجار والأرض والدواب والبحر، لشهد كل أولئك بالحق: أن زينب، كانت لنا الأنيس والراعي الذي افتقدناه. لقد وعيت الأشياء، في هذه البيت الفخم الموسوم بالعجز والسلطان، لكي أجدها العين الرقيبة، واليد اليقظة، وفي كثير من الأحيان، الصدر الودود.. كانت أمنا بالتربية. أما عزيزة. فقد كانت أمنا بالولادة.. هكذا كنا نخاطبها- باستثناء حسام- باسمها المجرد. فكانت لا تفتأ تضحك بسرور.. بيد أن زينب كانت لنا بالمرصاد.. أخذتنا بشيء من الشدة التي لا قسوة فيها، إلى أن تعودنا على النطق بذلك اللفظ الغامض الرطب الودود: ماما...

- كنت أرى أطياف الشفقة بادية في عيني زينب السوداوين، ويوماً قالت للحسين: (تباً للمرأة العاملة ولو كانت هي أنا). اضطرت أمي عزيزة إلى التوقف عن العمل تحت ضغط أبي.. ولكنها لم تترك عادتها في الخروج.. كان الحسين يقول لزينب: (صبرك يا بنت الداودي،..) وكانت زينب، تردد في أسف (الله يرحمك يا حاج! فقد أكلت مخ الضبع!).

أما أبي فقد كان - حين يغضب - يردد قولته المفضلة: (النساء ناقصات عقل ودين) فيعقب الحسين بينه وبين زينب، (خصوصاً إذا كان اسمها عزيزة!!).. أما أنا فقد فكرت كثيراً يوم سمعت أبي يتحسر بصوت مسموع: (الله يرحمك يا أم حسام، وإن كنت طمّاعة كباقي النساء، ولكنك كنت لا تبرحين البيت على أية حال..).

المشهد الثالث

من بيتنا المحاط بالعزلة والجلال. المتربع على هامة الأفئدة والعقول والأخيلة الناصبة بالحرمان. الجاثم على أرض منبسطة كأمل حارق تضرمه أشواق اللانهاية، استمدت أمي عزيزة سطوتها، ورضعت مجدها وسلطانها المترع بالغرور والإحساس الفادح بالمنعة من النقص والأقاويل.. لم يكن بين يديها- مما يستظلُّ به الأقوياء - من أسباب الصولة غير جمالها الريّان. المتحدَّث بالفتنة والإغراء.. أما عندما التقى بها أبي وهو رهين حجرته الأنيقة بالمصحة، إثر عملية أجريت له على المرارة، فأنعم به من سلطان جلست على مجده الأثيل!! حتى قال أحدهم ساخراً- من نفسه أو من الأيام- (إذا حضر الجمال، بطلت الأسباب والوسائل).

لكنها كانت شديدة الحرص على عملها في مصحة الضمان الاجتماعي بالمحمدية. لا من أجل العمل لذاته. ولكن لوجه الحرية التي لا تبغي بها بديلاً.. ألا ما أغرب هذا المجهول المدلل المطاع!! كان من القوة والصولة أن أمي عزيزة تمادت في الخضوع لشروط أبي، حتى خالها لا تعرف التمنع أو الرفض؟.. إلا محبوبتها المصونة فقد دافعت عنها بإخلاص الحواريين، قالت لأبي وهو يقف حيالها مودعاً:

- إلا عملي، فلا أستطيع التخلي عنه يا حاج..

- وما الحاجة إلى ذلك، فالخير كثير..

- لا يا حاج، إلا هذا، فأرجو أن تتجاوز عنه!

- والناس يا عزيزة.. ماذا أقول لهم؟

- أنت السيد فيهم، فلم الخوف؟

- من السيادة أخاف..

ورافقته إلى باب سيارته، مسندة يده أثناء المسير:

- ولو... عملي هو شرطي الوحيد يا حاج..

كانت متشبثة به حتى النهاية. ولم لا؟ رجل في الأربعين: يرفل بين يدي الحياة في موكب حافل من العز والصولة، فلاّح فوق الفلاحين، وسيد على الأرض والدواب وحتى البشر.. ولكنه -أيضاً- كان متشبثاً بها كأنها العز نفسه، أو الصولة ذاتها..

- لكم أنت صعبة يا عزيزة.. ولكني موافق.

وهكذا تم الزواج.. ودخلت في عالم جهنمي من الظفر والفرحة والحبور.. كانت تعبر سنتها السادسة والعشرين، مطلقة. ولكن الجمال يشفع عند الطغاة، فكيف بمصدِّر الطماطم والسويهلة إلى الخارج؟! وأصبحت تنتقل من البيت المحاط بالعزلة والجلال إلى المصحة بسيارة أبي المرسيدس..

-بدا أبي معها- على غير عادته- ليّناً وطيّباً.. أصبح موَّطأ الأكناف، فكأنه قابل لأن يألف ويؤلف.. حتى ذكر الجيران الذين تربض أكواخهم على مشارف أرضنا، أن الحاج قد أكل مخ الضبع. ولكن

هيهات أن يستمع أبي لأقاويل! فعلى جهله كان يرى نفسه بشراً بين رهط من الحمير.. أما زواجه فقد ظل لزمن طويل، الفاكهة المشتهاة لكافة المعارف، الأعداء منهم والأصدقاء.. كيف لا ؟ فبناء حياة على أنقاض أخرى، أبشع عند الله – وعند الناس– من قتل الناس جميعاً. . هكذا سمعتهم يتهامسون، بعد أن مرَّ على ذلك الحدث ثماني سنين، أقبح بالأنانية من رفيق لئيم!! هكذا سمعت زينب تجيب على حبها لأمي:

– للضرورات أحكام..

– وللوفاء أحكام أيضاً.

يتزوج على المسكينة بعد كل ذلك الإخلاص؟..

– يفعلها المال ولو بعد حين.

وقال الرجل الجالس على التراب:

– لو كان الفرنسيس على قيد الحياة...

– عليهم وعليك اللعنة.. هم سبب المهزلة.

– كانوا يمنعون تعدد الزوجات!

– الله ينتقم منهم!

– ولكن اليتم مر.

– صدقت أخيراً.. اليتم مر.

من أجل ذلك كان الحزين الصغير، محط عطف الناس، أما زينب فقد عرفت من الحسين، فرددت بحنق واضح (ما أقبح وجه الأنانية!!) منذ ذلك الوقت. كان حسام محط الاهتمام، وكان محط الحب

والإحسان، وكان رفيقها الذي لا تنام عنه عيناها إلا قليلاً.. إلى أن انتشر الخبر بين يدي أمي عزيزة فغضبت حتى قالت:

- لقد أوصيتك يا زينب بالأولاد جميعاً.. لا بحسام فقط..

- إني أعمل ما بالطاقة يا لَلاّ..

- ولكنك لا تعدلين..

- ولكن اليتم مر..

فقاطعتها أمي بحدة:

- ولكنك تعملين عندي.

- أطال الله عمر الحاج..!!

انسحبت أمي عزيزة، وغمغمات زينب تتعقبها بالشؤم والنذير والدعاء.. ولكن أين رحلت أم حسام؟ وأيقنت يومئذ أن الأرض ابتلعتها أو البحر.. فالإهانة قتَّالة. والعذر قبيح. ولو كان فقيه الزاوية هو الذي أوحى إلى أبي بالفتوى.. أية فتوى هذه التي تبيد إنساناً، وتيتم طفلاً، وترفع الحثالة إلى أعلى علّيين ؟ قال ذلك الحسين مقهقهاً وهو يشق جسد بطيخة بسكين..

- للتراب آذان يا راعي خيرات الحاج..

قالت زينب بنبرة هي الوعيد.

- النسوان - والله - هنّ الشيطان بعينه!.

حركت زينب يدها كأنها تهش شيئاً.

- حتى الذباب يعشق دفء الشمس..

- والبعوض أيضاً..

لم تكن مناسبة لتبادل القذائف. فغيرت زينب رحلة المجرى، تحدثت عن كثرة المتاعب وثرثرة الأطفال. وغياب الأم. وغيبوبة الحاج.. عادت أكثر إلى غياب عزيزة وأطنب في الحكاية والاحتجاج والدعاء. وقال الحسين بطريقته المعهودة:

- قولي لي أنت يا بنت الداودي لِمَ لم تتزوجي أنت بالحاج؟!

تراجعت إلى الوراء في تأفف:

- كرهت جنس الرجال..

أجاب الحسين:

- مهلاً يا بنت الداودي، ليس كل الرجال كحفّاري الآبار.

- اللعنة عليك.. أتشتم أبي؟

- بل زوجك المرحوم من أشتم..

- صدقت عليك اللعنة!!

* * *

أما أمي عزيزة فقد خضعت لكلام أبي.. ولكنها ظلّت وفية لمعشوقها القديم.. تخلت عن عملها في المصحة بيد أنها لم تتخل عن

الوفاء للحرية الموشومة بالقلق واللاجدوى، كانت تقول لنفسها وهي تتأمل المرآة: (إنني لم أخلق للبيت، ولكنني خلقت للحرية) أية حرية هذه التي تحب أمي عزيزة؟ وأي شيء هذا الذي تدين له بالبيعة والقداسة؟!

لا أدري بالطبع! ولكن عاد أبي ذات يوم مغلق الأبواب والسماوات من فعل تراكم السحب.. عاد متوتر العينين، غاضب الشفتين، مأسور اليدين على الوراء وسط الظهر.. لم يلتفت إلينا.. - نحن الذين كنا نتابع شريطاً للفيديو- كان يعبر نحو الداخل، وكانت خطواته الثقيلة تفضح المجهول.. وتناهى إلينا صوته المبلل بغبار الغضب والتوسل والوعيد:

- ها قد تناهى إليّ كلام الناس..

لا جواب من ناحيتها..

- أما بقي في بلاد الله غير القيادة؟

- كانت وساطة بريئة..

تناهى إلينا صوتها المتراجع إلى الوراء..

- يا سبحان الله.. يا سبحان الله.. ومتى كان أبوك شفيعاً للمحتاجين؟! وملاذاً للعباد؟ اسمعي - يبدو أنك من جنس المساخيط، وعليّ الحرام إما لزمت بيتك، أو فالمصحة أولى بك..

ثم صاح بنبرة أشد وعيداً من الأولى:

- يا عزيزة.. يا عزيزة كوني عاقلة. فمن كفر بأنعم الله تعرض لزوالها...

في ذلك المساء المهدد بالانهيار. لم تستطع أمي عزيزة الرد أو الجواب، فقد كان الأمر متعلقاً بالوجود أو عدم الوجود.. بالهوان أو الرئاسة المستمدة من مجد الأرض.. نكص الصوت أخيراً وتراجع إلى الوراء إلى أن خرج أبي يدك الأرض دكاً بخطواته المتوعدة.. وتناهى إلينا صوتها أخيراً كترجيع متقطع مقهور..

كنت قد رغبت عن النظر إلى الشاشة.. كل المسرات هلكت ولم يبق غير وجه الغضب وكل الأصداء فنيت إلا صدى صوت أبي الذي بقي صامداً كبقايا صاعقة تولول في جنبات روض ميت. ووقف أمامي حسام كبشير أو نذير:

- هلمي يا أختي ندخل على أمنا..

كنت أود الاحتجاج على هذه الجرأة. . ولكن ليس الوقت وقت احتجاج..

المشهد الرابع

هذا كل ما أذكره عن صباي الأول. ولكن لا تعود أبداً لذة الصبا الأول..

يتكرر صداها في طبقات الفؤاد. كما يتكرر صدى أطلقه مجهول من أعالي الجبال.. ويكون تكرار الصوت والصور والأشياء في مرايا الذاكرة، فعلاً لذيذاً يشبه الحلم. ولكن.. محزنٌ هو الحلم الذي يتربع على أشلاء الماضي. ذلك أنه في الواقع، إنما يتربع على بقايا ذواتنا على هيئة تنذر بالموت والسخرية. إذ لا أمل في استرجاع أشباح أحلام ولَّت.

على أنه توجد فرصة عزاء في الحاضر. حيث تقبع لذة ما، في تذكر السنين الذاهبات، والذكريات الدارسات، وذلك حين ننفصل أبدياً عن عصور الصفاء الأول، المختال ببراءة في شعاب الصدق أو البدائية: عصور الصبا والطفولة الأولى..

وها نحن أولاء نتملَّى في طلعتها المبتعدة في إصرار، وقد تماهينا بدون رغبة منا - أو بملء رغبتنا فلست أدري - في سن أخرى وعمر آخر، مسربل في أعتاب زمن جديد. فما أكثر ما يغيرنا الزمن! إننا لنندفع بكامل إرادتنا إلى قذف الزمان بالخيانة والجحود. بيد أننا نغفر إذ نجد خلايا الوفاء تتكاثر فينا بلا هوادة. كأنها تزمع على فتح مملكة - لا نعرفها - رائعة للإنسان.. هكذا انحشرتُ - منذ

عودتي، من مؤسسة لافونتين للباليه - بعيداً في تضاريس الذاكرة. أنبش فيها عن معنى في أطباق السنين. ليس اليوم كالأمس. قلت لنفسي إنَّ خُطا الزمان أسرع مما تصورت. أما الحاضر فعلى جماله ما أبطأه! وهل يمكن تكرار الأيام في أحضان البيت العامر بالسطوة والنعيم بجوار المحيط؟! هناك كان الإحساس رائعاً بالسيادة على الإنسان والطبيعة والأشياء. كان أبي في بيتنا المنعزل المستكبر على الأرض والسماء- عزيزاً بين الفلاحين البسطاء مطوقاً بمشنقة كبرى من الإكبار. السكون والصمت والنسائم ورائحة البحر وألحان الموج العابقة بالدوام. كل ذلك كان مهرجاناً عصيّاً على الوصف يحتفل بعز البيت العتيد فهل يمكن استرجاع الأيام الذاهبة أو توديعها دون فقدان ذلك كله؟!..

حسّان. سكنى زاخرة بالطمأنينة لكن بلا هيبة أو إكبار ولا حتى ذلك الجوار المترع بالأمان والتفوق. أما الإحساس بالسيادة فقد تبدد. كما تبدد رجع البحر وتهليل الطبيعة وهديل الحمام. تبدد كل ذلك كما تبدد من السمع صوت جميل لطيور مهاجرة. حسّان حي يجثم على كبد الرباط. ولد ذات يوم وفي حلقه بيت جديد. بيتنا. أما اليوم فأتأمل كل ذلك وأقول بسخرية: كل شيء يدوم إلا عز القرية. وعذرية الصبا الأول..

* * *

فهل كانت سعادة أبي الحاج - في ذلك اليوم البعيد- حقيقية لا يشوبها زيف...؟

دخل علينا مشرق القسمات. وكنا نتحلق حول الشاشة بعد نزهة جميلة إلى صخور البحر:

- أبشري يا عزيزة.. انتصرنا.. انتصرنا!

تلاشى التثاؤب في عيني أمي عزيزة.. وانتقلت إلينا العدوى بدون أن ندرك سر الفرحة ولكن هكذا الطفولة. تجذب إليها كل ذرات السعادة مهما كانت مبهمة أو صغيرة أو غامضة كالمغناطيس أو أشد..

- أتعني ما تقول يا حاج؟!

- أجل. أعني ما أقول يا عزيزة.. انتصرنا..

- إذن...

شدّت على يديه في جذل كالطغيان...

- إذن فقد رُقِّيت من درجة فلاح إلى درجة نائب في المجلس.

- مبارك علينا!. مبارك علينا!

وأطلقت زغاريد سكرى في فناء البيت الذي ازداد استكباراً.. في حين رقصنا - أنا وكريمة - بين أرجلهما كقطتين. بينما جلس حسام بسّام الثغر بالقرب من زينب التي شاركتنا الفرحة بالزغاريد: لقد كانت سعادة أبي حقيقية حتى فاضت عيناه باعتداد متبتل في هيكل الصعود والمجد، أما عزيزة، فقد استعمرها الكبرياء وقامت على الأشياء والخلق كأنما بشرت بالجنة مع الخالدين.. أما ربا وكريمة - أي أنا وأختي - فقد ضحكتا ملء النفس والفؤاد، ولكن هل كنا نعلم

بالآتي؟ . تبين لي أن الأيام سور عالٍ يخفي وراءه ما لا عين رأت، ولا خطر على قلب طفلة من المفاجآت.. ورغم ذلك، فقد صاح أبي يومئذ بصوت تحول إلى كائن أسطوري:

- اذبحوا الذبائح، وأطعموا الطعام.. وليشهد هذا البيت من المسرّات سبعة أيام بلياليها.. بيد أن عزيزة - أمي - كانت تفكر في شيء آخر:

- بعد اليوم سننتقل إلى الرباط.

- أجل. بعد اليوم، نحن من أهل الرباط..

أي حدث هذا الذي قضي بفعل السحر؟ واقترنت لديّ الانتخابات بالسيادة، حتى تمنيت ألا أكون شيئاً غير مريدة في ذلك الهيكل الأسطوري.. ولم لا؟ فببركاته السنية انتقلنا إلى حسان: هذا الحي، العامر بالسمو واللامبالاة..

* * *

في ذلك الشهر اليتيم في مسراته.. الكريم بأفراحه وعطاياه، لم يكن أي حديث يطغى في بيتنا المستكبر - على طغيان الانتصار المجلل بالآمال والوعود.. أما في خارج البيت فقد شاع الخبر كما يشيع الضباب في الساحل، وخاطب الحسين زينب في ذلك قائلاً: إن الناس أصبحوا شيعاً بين مؤيد ومعارض، وبين مهنىء وحاسد. ولكن الحساد يملؤون الأرض كالجراد.. وكذلك امتلأ المجلس مراراً بالمهنئين أو بذوي الحاجات، حتى جأرت زينب بالدعاء على الجميع، واستدرت لهم اللعنة سراً وجهاراً، ولكن الحسين بادرها مقهقهاً كعادته:

- غداً تملأ المخازن بما فقد اليوم. . وترتج الحظيرة بالبهائم كما كانت..

- ليكن. ولكن أنا الضحية.

- ليكن؟! ألم تغرقي أعتاب الحاج بالدعاء؟

واسترسلت وهي تتحرك بين الفرن، ومخزن الدقيق:

- ولو. . لقد قرر بيع نصف الأرض..

- ذلك لكي يشتري نصف الحياة..

- اللعنة على الحياة، حين تباع الأرض..

وأمّن على قولها بنبرة لم يزايلها المزاح:

- أجل اللعنة عليها..

توقفت عن العمل لحظة لكي تتساءل:

- كيف يهون عليه البيت؟ بل كيف يهون عليه كل شيء؟

أجابها الحسين ضاحكاً، وهو يشير إلى شيء بعيد مضيء..

- الحاج هو الحاج..

- أجل، الحاج هو الحاج..

- ألم تهن عليه أم..

توقفت عن الكلام وهي تنظر إليّ بحذر، لم تأمرني بالدخول إلى البيت، ولكن الحسين كان معها في الخط:

- الجزاء يكون دوماً من جنس الجريمة يا زينب؟

- أجل هو كذلك، وربنا فوق الجناة..

لم أعد أفهم شيئاً، بيد أن الحسين تساءل باهتمام:

- وهل يباع البيت؟

- لا. . إلا هذا، ولكنه سيهجره إلى الرباط..

ضحك بلا مناسبة. فالتفتت إليه:

- أنت أولى به من الفئران..

- أنا؟..

تساءل وهو يقف بين المزاح والجد..

- نعم. سمعت الحاج وهو يقول للقايد إنه سيتركك مع البيت والبهائم..

فأجاب الحسين مازحاً، ولكن كمن يأخذ العبرة أو يدعو إلى استخلاصها:

- الفلاح يبقى دائماً فلاحاً..

عقبت زينب وهي ترمي بفطيرة فوق النار..

- ولكن الانتخابات أقوى..

* * *

ذكرت كل ذلك، وقلت لنفسي متأسية بحسام في التفكير: ما أبعد الفرق بين الأمس واليوم! هناك شبه ما ولكن كالشبه في القشور.. فقد أخذتني الشوارع المفروشة بالسكينة والنظافة كل مأخذ. وأما الدور والمنازل، فهي آيات في الجمال كأنما هي قصور مصغرة. الأشجار الخضراء، والزهور هي التي نسجت إمارة الحسن على الأرض، أما الهواء، فتخال أن قوة ما غسلته برائحة كالصفاء.. طالعني جدار بيتنا المجلل بالقرميد، تأملت زهور الخيري فأيقنت بوجود عوامل أخرى للجمال.. أحببت حسان ثم بعد ذلك مللته. لم أعد أحس بالاستعلاء والتمايز. هكذا يقع عندما تقطع فضاء زمن مابين سرب من الضعفاء، ثم تنتقل إلى رفقة سرب آخر من العقبان فأين نحن من جيراننا الجدد الذين لا نرى منهم غير سياراتهم الأنيقة، ونظراتهم المتعالية، وحركاتهم المطبوعة باللامبالاة ؟ انغرست في بيئتي الجديدة. وأنا أظن أنني أهرب منها. تماديت في الهرب - أقصد الاستسلام - حتى أنكرت أروى عليّ ذلك.. ترى كيف تعرفت عليها لأول مرة؟ لا أذكر التاريخ بالضبط، ولكن كنت أحث الخطا مبللة الشعر من جراء سقوط الأمطار. في ذلك اليوم لم توصلني أمي عزيزة إلى المدرسة. ولم تعد إليّ في منتصف النهار. تابعت المسير جادة في شيء من السرور. وفجأة تناهى إليّ صوتها الرخيم:

- هه.. أنت أيتها الصديقة..

التفت إليها. جميلة حتى الموت. تكبرني طولاً وعرضاً. تشبه ربا في لون الشعر: أشقر. أصفر. لامع، منساب بلا نظام. ارتحت إلى ذلك، وأنا أتطلع إلى محفظتها المستريحة على الظهر.

- أنا أعرفك.. تعالي من المطر.

اقتربت منها في استعلاء وخوف أيضاً. كانت تبتسم كأنها تريد اختطافي من برجي العالي.

تطلعت مرة أخرى إلى مظلتها الزرقاء وهي تنتشر فوق رأسها في ارتياح ومودة. لم يكن لدي ساعتها مظلة فغضبت!!.

كنت أبحث عن شيء ما ألوذ به من اضطرابي أو حرجي. نقّبت في لساني عن كلمة. فانهار الجدار.. لم أستطع قول شيء مفيد سوى بعض الغمغمات أو الآهات. ومرة أخرى كانت تريد اختطافي من صمتي:

- أنت جارتنا..

أجبت بلا تفكير:

- آه. أعتقد ذلك.

- وأنا أروى. أدرس في الديكارت. وأنت؟

- وأنا ربا. أدرس في الليمون..

- أهلاً..

- أهلاً..

كنت أظن أن مادة الكلام بيننا قد نضبت. استسلمت في تلذذ إلى وقع المطر على وجه المظلة.

- رأيتك مراراً وأنت تركبين المرسيدس.

- آه أكون مع أمي عزيزة.

- عزيزة؟!!

- أقصد أمي..

قلت ذلك. لأتخلص دفعة واحدة من نقص ما.

- ولكنك لم تريني من قبل. مع أننا التقينا كثيراً.

التفت إليها مندهشة. قالت لها نظراتي المتسائلة: كيف؟

- مدرسة لافونتين. مدام أميل...

- هل أنت أيضاً تدرسين الباليه؟

تساءلت بفرح...

- أجل. ولكني لست متقدمة مثلك.

ها هو الاستعلاء يعود إلى العرش. لذت بالصمت وبادرتني بصراحة حطمت ما بقي من برجي العاجي:

- من اليوم سنكون أصدقاء..

ابتسمت لمبادرتها الودودة: لقد انتشلتني من العزلة التي غطست فيها منذ سنتين.

- بيتنا هو فيلا ياسمينة. رقم (٤٥) في رأس الشارع..

- وأنا بيتنا...

قاطعتني بمودة:

- أعرفها.. أعرفها..

* * *

أصبح حسام رجلاً صغيراً. فما أبعد الفرق بين الأمس واليوم! ولكن - أيضاً - ما أقرب الشبه بينهما! هكذا شاركتني أمي وهي تضع باقة الورود على طاولة الغداء. أما زينب؟ فقد قالت مشاركة لنا في الحديث:

- ولكنه كان كبيراً دوماً.

عرفت ما تقصد. لم أغضب كسابق الأيام الغابرة فبادرتها ضاحكة:

- حقاً. لقد كان دوماً رجلاً صغيراً، حتى وهو طفل كبير..

ضحكنا جميعاً، فتساءلت أمي عزيزة ولكن بنبرة تقريرية:

- وأنت أيضاً كبرت يا ربا..

- وزينب، أيضاً..

ضحكنا، فأردفت جواباً على تعليقي:

- الصحة وراحة القلب هي المطلوب يا للاّ..

- أجل الصحة وراحة القلب.

كانت تريد أن تقول إن ذلك ما نبحث عنه. ولكن من ناحيتي لم أكن أفهم جيداً ما أبعاد الكلمات.

وحسام نفسه قال ذلك وهو يدخل بسنته السابعة عشرة كشيخ كبير. ولكن من يعش أكثر في البيت المحاط بالعزلة والجلال، يكبر فوق الزمن! فهل تمتع بالسيادة وحده في تلك السنوات التي لبث فيها وحيداً مع الحسن؟ أما هذا الأخير. فقد علق بفخار:

- هيبة الحاج حاضرة رغم الغياب..

- لأن الناس يخافون ولا يحترمون.

علقت زينب. وظننت أنها تقصد زوجها القديم. وقلت في نفسي إن الناس في حي حسان لا يخافون، وأيضاً لا يحترمون. وقال الحسين كأنما قرأ ما في الأعماق:

- طبيعة الناس الخوف.

- الناس كالمعادن. يا الحسين.. ففرِّق!

علقت زينب بتحذير..

- أجل. الناس كالمعادن. ولكن عزّ الذهب.

- وما دمت في عزِّ الحاج.. فلا يهم الذهب.

لبث الحسين صامتاً، واشتغلت زينب، بتنقية اللوز من القشور. ثم تساءل:

- وكيف هي صحة حسام؟

تذكرت الذبول. وشدة الهزال. وضمور العينين.

- أما اليوم فالحمدلله..

- مسكين حسام...

وعقبت زينب...

- يبدو كأنه نسي أيام المرض...

- أما أنا يا زينب، فلست أنسى. ..

تذكرت المشهد من جديد، يوم دخل علينا الحسين وقد حمل حسام على كتفيه القويتين كان يبدو فوقهما كذبيحة مسلوخة تنتظر البيع. نظرت إليه أم عزيزة بامتعاض. وهرعت إليه زينب مرتاعة تتساءل. أما أبي فقد انزعج بوضوح. كنت أرنو إليه مشدودة إلى الجسد المسجى على السرير. وتكلم الحسين:

- ازدادت حالته سوءاً فقلت لا مهرب إلا إلى الحاج.

- ماذا حدث بالضبط يا الحسين؟

- لا أدري. ولكنه كان يتدهور يوماً بعد يوم.

تأملت حساماً. فرأيت الفناء يرفرف فوق جفنيه.. ألا ما أفظع المرض! أما أمي عزيزة. فخرجت كأن الأمر لا يعنيها، سارت السيارة بنا نحو السويس. وكان حسام يسير نحو الهاوية.

كانت زينب تبكي بصدق. ولكني لم أشاركها الإحساس. وقال الدكتور لأبي كأنه يتكلم عن أحوال الطقس!:

- لديه إصابة في الصدر.

انزعج أبي بشدة. وبكت زينب أكثر. واستمعت أنا باهتمام أكبر. أصبح حسام يهمني ولا تفسير عندي لذلك. ربما لأنني كنت أحبه منذ أيام الطفولة. أيكون الشعور بالاستعلاء أكبر من الحب؟

- وهل الحالة خطيرة يا دكتور مصطفى؟

- قابلة للعلاج إذا بقي تحت المراقبة.

- لك ما تريد..

وتساءل الدكتور مصطفى على وجه العادة:

- ابنك فيما أعتقد...

- هو كابني...

قالها أبي بتأثر وضيق: الضيق بالسؤال، والتأثر لحسام.

- وكم تدوم مدة العلاج؟

- لا تقِّل عن ثمانية أشهر.

- على بركة الله.

- مع السلامة.

* * *

وقال الحسين يخاطب زينب، وقد انتهت من تنقية اللوز:

- ولكنه يبدو اليوم كأنه نسي كل شيء...

المشهد الخامس

كانت وحدات الحمام تحوم حول جسد الصومعة الضارب في القدم وتماسك البنيان. السماء صافية. والفضاء يبدو بلا قرار.. وقال أبي لحسام بعد تفكر طويل:

- لن تعود إلى البلد..

- ولكني أحب البلد يا أبت.

- البحر لا يناسب صحتك يا حسام.

- وأنا أحب البحر والبلد.

أجاب حسام بأدب يشي ببعض الدعابة.

- ستتابع دراستك هنا. أما البلد فسنزورها جميعاً بين الحين والآخر..

- أمرك يا أبت..

فرحت لذلك القرار. عدت من جراء ذلك إلى الوراء: إلى أيام الاستعداد للرحيل إلى الرباط. كانت أمي في طريقها إلى السماء من فرط الرضى. سألت حساماً يومها عن رأيه في الانتقال السعيد فتأملني باسماً ثم قال:

- جميل. ولكني باقٍ هنا في البلد.

- ألا تحب المدينة؟

- أحب بيتنا. وتلك رغبة أبي.

ولكنه عاد أخيراً إلينا رغم حبه للبلد. كان المرض فظيعاً كما كان دوماً. ولكنه أحياناً يصنع المسرّات! كما يصنع المآسي... وما يسرني حقاً. هو تخلص العليل من بقايا ذلك المرض الخبيث، وآية ذلك أن وزنه قد ازداد بصورة تدعو إلى الفرح. امتلأ جسمه بعد هزال. وارتفعت قامته فهي تطاول الحسين إلا قليلاً. أما الوجه، فقد أصبح أكثر إشراقاً. وحده الصمت الذي لم يتغير في حسام، إنه رجل صغير كما قالت زينب، وإنه طفل كبير كما قلت أنا.. ولكن ولّت الطفولة طوعاً أو كرهاً، كما ولى عهد السيادة الحقة، والمجد الجالس على القلوب...

* * *

كانت حياة الصخب والأضواء الجديدة قد أمست سارية في الدم كما في الأعماق، انصهرت في دوامتها الآسرة كما يليق بفتاة تطرق سنتها السابعة عشرة: سن الاهتزاز والفوران الغامض، عمر الأحلام المستحيلة والتحولات المدهشة. عهد الرؤى الأسطورية والآراء المجللة بالطغيان. عصر الانهيارات الباطنية، والولادة العسيرة. والانقلابات الداخلية. سن العصيان والدفاع والقلق والسؤال والرفض والانبهار.. كانت الحياة بالنسبة إلي، في خضم هذا الجسر المزروع بالألغام. المطوق بالتشققات، بين يدي هذه المرحلة المبشرة بشتى المفاجآت، المنذرة بكل الاحتمالات. كانت الحياة بين كل ذلك تتابع إيقاعها كأنها

خرجت عن طاعة الزمن؟ أو كأنها ركبت أعلى الخيول المتوحشة، لتخوض أشرس المعارك البدائية. ضد من؟ ربما ضد الذات. أو ضد القيم. أو ضد الأشياء، أو ضد الخلق. أو ضد السماوات والأرض.. هذه هي سن السابعة عشرة بالنسبة لريا..

لم يكن الزمن يعني بالنسبة إليَّ شيئاً. ربما لأني لم أكن أحس به. أو قل: إنه كان ينفلت من يدي، ووعيي، كالحلم أو الخيال، كان حسام يتقدم في دراسته بلا هوادة. قطع سنوات الدراسة بنجاح ساحق، كأنه لم يحسن شيئاً في حياته غير النجاح.. كان ذلك يضحكني أحياناً، لأني لم أتصور أبداً حياة حقيقية بلا تسلية أو فراغ أو ضلال.. أما هو فقد كانت تسليته منطرحة بين الكتاب والصلاة. وأما الفراغ فقد كان يطرده شر طردة بقولته الشهيرة: الواجبات أكثر من الأوقات.. كنت أتأمله باندهاش حقيقي لاستعلائه العنيد على كل مباهج الحياة.. عجبت لهذه العادات الجديدة التي أدخلها إلى بيتنا السكران بالبطالة والفراغ المستمر. كان يصلي بين قوم لا يعرفون الصلاة. حتى أبي كان يذهب إلى المسجد - أحياناً فقط- في أيام العيد، أو الجمعة... وكان يقرأ باستمرار بين قوم يدمنون الفيديو أو التطواف كأنصاف الرُّحَّل الذين يبدون دائماً مثل كائنات عقدت وثيقة قطيعة وتنافر مع الاستقرار..

وأعجب ما عجبت منه سلوك أمي عزيزة تجاه هذا الزاهد، المستعلي، العنيد...

كانت تبدو وكأنها تتضايق من حياته الموصولة بالجد. ولكن ماذا يمكن أن يقال في مثل هذه الأحوال؟ لا شيء على الإطلاق. فأحياناً

نجـد أنفـسنا عـاجـزين عن الوصـف، حين يكون الموصـوف فـوق الوصف،.. لم أكن أعرف بالضبط لم كانت تجتهد وتعمل بكل الأسباب كي تخرجه من محرابه المحبوب. فكان يجد نفسه مكلّفاً بكثير من الأعمال التي كان ينبغي أن تقوم بها زينب، أو حارس البيت. أتكون تصرفاتها تجاه الزاهد المستعلي ثمرة للغيرة؟ أية غيرة؟ ولم الغيرة؟.. أحياناً كان ترقبها ينقلب إلى مودة بلا مناسبة. وتتقلب خشونة أمي عزيزة إلى يسر وليونة ناشزة عن أخدود الجراءة والقسوة المعهودتين. أين حسام من كل هذ التقلبات؟ وأين هو من شتى هذه التحولات؟

لو اطلعت عليه، لوجدته ساكناً، مطمئناً، مؤدباً جم الأدب. غائباً أو كالغائب عن تلك النزوات المتغيرة. الراحلة بين القسوة واللين. وبين الشدة والمودة، ولكن كانت لأمي عزيزة شهوة إلى تركيع حسام!! وكانت لها إرادة للاستعلاء الصامت كأنه جبل يشرف على أثافي منصهرة بالنيران.. قلت في نفسي: لولا كبرك يا حسام ما تجشّمت هذه المتاعب!.

وفي الحقيقة فقد كان يضايقني أنا أيضاً، لأني كنت أتضاءل كرهاً أمام قوّته البادية للعيان، كان يبدو موسوعة صغيرة لكثير من المعارف. وكان أبي يعترف له بالسبق، ها هنا كنا نشترك - أنا وأمي عزيزة- في شهوة التحطيم. أجل التحطيم! فهذا الأجنبي، الزاهد، المتكبر، هذا الولد العنيد. المؤدب. الباسم. المتسلط. ما شأنه حتى يظفر بهذا المقام؟. سرني أن أتجسس عليه، وأقتحم خاصة شؤونه. وأكسر أسوار مدينته المحرمة. قلت في نفسي، هذا أوان الفرحة على الغرابة

والأعاجيب! فإلى حجرة حسام التي تسربلت بالأسرار والغموض. والتي تأخذ صفاتها من الظلام والتخفي والأسطورة الآتية من وراء البحار.

أزمعت على الاقتحام. قلت في نفسي إن أصلح الأوقات حين تتساقط قذائف الظلام على الأشياء والكائنات. ولا أحد في البيت سواي. أما حسام فقد تخيّلت أنه يقوم بأشياء فظيعة تضاهي في فظاعتها ما كانت توحيه إلي أحلامي المستحيلة المباركة بأشرطة الفيديو.. ولم لا؟ أيكون حسام خارجاً عن قوانين البشر؟ لأضبطنَّه متلبِّساً بما لا يعلن حتى يصبح سهلاً للتحطيم! وليكونن عبرة للسادرين في مجاهيل الكبر المتخفين وراء أردية الأخلاق المزيفة. والأدب المغشوش. والتعالي القائم على السقوط.

تسللت كالأرنبة على أصابع رجلي إلى الطابق العلوي. كنت أمني نفسي بالظفر والانتصار. سرت أقطع الممر بحذق اللصوص، سيكون اليوم بين قبضة الاعتراف. تقدمت إلى باب الحجرة، وجدته غارقاً في الظلام إلا غلالة باهتة تلقي بأصدائها في أرضية الممر.. إذن فالباب مفتوح!! أطل رأسي بفضول طاغ متجبر ونفس ظالمة مسرورة. كي أقف على محراب الأسرار، ومهبط الغرابة ومستودع التناقضات. لكن.. ما هذا؟ يا للشيطان! هذه أمي عزيزة تقف ملتصقة بالجدار كالشبح، ماذا تفعل هنا؟ ما الذي أتى بها في مثل هذا الوقت؟ أيكون...؟! لا.. لا.. ولم لا؟.. ولكن مستحيل! أمي عزيزة؟ لأقتحمنَّ الظلام حتى ينفضح الشياطين، دخلت الحجرة المظلمة. التفتت إليَّ أمي عزيزة. كان يبدو أنها فوجئت بقوة لا تتصور. ولكنها جرتني من

يدي مشيرة إليّ بعدم إحداث أية حركة.. التفت حولي بعيون متجسسة متوحشة، متهمة. تريد تحطيم كل شيء. وتريد أيضاً فضح كل شيء..

توقفت عيناي الجائعتان على شخص حسام.

انهارت كل التوقعات. تحطمت في أعماقي كل الخيالات. داهمتني الخيبة والخجل حتى العظام. انكسرت أمام هيئته حتى تواريت في الظلام. تلاشت جرأتي وخار توجسي. وتشقق تطلعي حتى تضاءلت. ماذا يفعل حسام؟ لماذا يجلس هذه الجلسة الساجدة؟ لماذا يرفع عينيه بهذه الطريقة المتصوفة الخاشعة؟ أتراه أحس بنا؟ أتراه يتجاهلنا؟ أتراه يمارس استعلاءه علينا..؟ وانطلق من ذلك الجسد الراكع الساجد المتبتل الخاشع المتجاهل المتعالي المستكبر العنيد، صوت متهدج غائب حنون رطب طاغ معترف سيد حبيب. قال الصوت:

اللهم إني عبدك. وابن عبدك.

ابن أمتك. ناصيتي بيدك..

ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك..

أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك،

أو علمته أحداً من خلقك،

أو استأثرت به في علم الغيب عندك،

أن تجعل القرآن ربيع قلبي..

ونور بصري..

وجلاء حزني

وذهاب همّي..

اللهم احفظ أبي، . . واغفر لأمي عزيزة.

واهد أختيَّ ربا وكريمة. يا أرحم الراحمين..

يا رب العالمين..

تراجعت بلا إرادة مني، وأنا أقول لنفسي: لقد انكشفت.. وفضحت، وانهزمت. أصبحت منذ اليوم أضحوكة وما كان أغناني عن ذلك، لحق بي أمي عزيزة وأنا أقفز فوق الأدراج نحو الطابق الأسفل.. جذبتني بشدة:

- ماذا جاء بك إلى حجرة حسام؟

- لا شيء.. لا شيء!

قلت بلهوجة واضطراب.

- وأنت؟

- لا شيء.. لا شيء!

قالت بنفس اللهجة...

المشهد السادس

الحياة مع أروى تبدو لذيذة كفاكهة مشتهاة. كلحن رقيق جميل.

كشعور سعيد...

كل شيء يمضي بيسر وانسياب، كأنما هي الأرض غير الأرض والسماء. في القلب ما شئت من فرح وأمل وتطلعات نحو المستحيل، وفي النفس نواقيس ضاحكة. ما شئت من هاتفات الأماني التي سامت الفؤاد روحاً ونظرة إلى الحياة سديمها المغامرة. كنت أرى فيها مساندة صريحة لروعة التصورات والخلقة والصفات. العينان صباح مشرق في أواخر مارس الجميل. وللشعر شقرة واصفرار كلون الرحيل. في نظراتها سنة متأصلة ولكنها مشرقة تنادي إلى الحياة. بحيرة تستفيق من نومها عند الصباح الباكر. كل ما فيها ينبىء بالطمأنينة والمصالحة. سوى أنها كانت متقلبة المزاج سريعة الانفعال تنفجر كقنبلة غادرة، لكن لا ضيرا، إنها ترضى لأقل بادرة صلح كأحد المصلحين. والويل لمن تثور عليه! هذه هي أروى. جعلت منها رفيقتي الوحيدة حتى انضم إلينا جلال...

دخلت معها منذ الصغر إلى عالمها الموشوم بالانطلاق من كافة القيود. لذلك انتقلت إليّ العدوى ولكني كنت على استعداد قديم كذلك. حلمنا معاً بالنبوغ في فن الباليه، وسبقتنا أحلامنا لتجوب الآفاق، فتبدّى لنا المجد في هذه الدنيا طريدة سهلة بين اليدين بيد

أنها كانت أكثر هوساً بهذا الفن، لذلك لم أستطع تجاوزها أمام مدام أميل- مُدّرستنا- لم أحزن. لأني لم أكن مثلها مجنونة بالوصول إلى سدة المجد. بل لأنني لم آخذ في حياتي شيئاً بجدية تناسب الآمال الكبار. اكتفيت بالحلم والانبهار أمام الأشياء. واكتفى القلب بترديد الأمجاد: أمجاد الحاج السعداوي المالكة للأرض وما عليها. الرجل الذي ارتقى في سلم الإنسانية. من رتبة فلاح إلى مقام النائب البرلماني الرازح تحت الأثقال..

لذلك. لم أكن أفكر بعزم كي أرتاد آفاقاً أخرى. أيها القلب الأرعن، تقدم لترى ما لم تره عيناك، وما لم تطأه قدماك. الإدمان على شتى الملاهي والتعلق بالجنون هو ما ينبغي أن يكون لديك اليوم محط الإجلال. اللعنة عليه! يتعالى على الدنيا لأنه لم يرها.

اللعنة على حسام، كافة معاقل اللهو عرفتها فشربت حتى الثمالة.

ويوماً انفردت بي - ونحن نغادر المركز الثقافي الفرنسي - تأبطت ذراعي بمودة فقلت إن شيئاً ما سيكون. خاطبتني بنبرة ذات معنى:

- لقد ذكرك الشيكل فيمن عنده..

- الشيكل!؟..

تساءلت مستنكرة.

أقصد مدام أميل..

ضحكت. فسألتني بتحذير العارفين:

- ما يضحكك. أما تعرفين أن مدام أميل هي التي تدعوها بالشيكل؟

- في الحقيقة لا..

- ذلك لأنك لم تصبحي عضوة بعد.

تابعت عبثها بالألغاز، فأدخلتني إلى تفسير ما لم أستطع له حلاً:

- إنها من هواة جمع نماذج النقد الإسرائيلي.

ضحكنا معاً. لم أشأ مجاراتها في ذلك الحديث كي لا تنتهي إلى رأيها في الشعب الفلسطيني، فحاولت تغيير تيار الكلام، قلت لها متسائلة لكن لم أخرج عن جاذبية الموضوع.

- لماذا ذكرني الشيكل فيمن عنده؟

قالت بعد تفكر:

- في الواقع يا عزيزتي، ثمة أفق جديد ينفتح -عن قريب- بين يديك...

شجعتها بابتسامتي فتابعت:

- ولكن..

- ولكن ماذا يا أروى؟

سألتها ضاحكة.

- ولكن الأمر يتوقف على روح جديدة..

لم أفهم، بدا ذلك منعكساً في عينيها، فاستدركت:

- نادي النجمة..

ها هي تدعوني إلى ارتياد المجهول..

- أراك مغرمة بالألغاز يا عزيزتي، هل أثر فيك فيلم اليوم؟

- أبداً، ولكنها الحقيقة: نادي النجمة.

ولما عجزت عن الفهم، دخلت في التفاصيل:

- نادٍ يبشر بمسرات لا عهد لنا بها.. فرص للثقافة والمعرفة، صداقات جديدة تتوّج بالمثول بين يدي الزعيم.

ضحكت من نبرتها الخطابية، ونحن نمر بجانب وزارة التربية:

- عرفنا الثقافة والمعرفة، فما هو الزعيم؟ أيكون (ديكوراً) جديداً في دنيا الصداقات؟!

- علا صوتها مقهقهاً بلا تحفظ:

- لا بل هو الأب الروحي للنادي إن جازت التسمية، آه يا ربا ! كم هو لطيف ومتحضر؟!.

- فهمنا هذا . . فما دوري أنا؟

- هل تنضمين إلى النادي يا ربا؟

- كيف؟

- ما عليك إلا أن تقولي نعم قد قبلت، لكي تصبحي عضوة كاملة العضوية.

قلت لها وأنا أستسلم لنشوة الاستكشاف:

- نعم، قد قبلت..

- (برافو . برافو). والآن إلى النجمة..

قلت لنفسي هذه فرصة للتجديد، ما دام الملل هو قدر الأشياء. وأما حسام فقد وقف على باب الذاكرة بوجهه الصامت. حاصرتني نظراته التي تفشي آلاف المعاني الغامضة.

هربت من سطوتها إلى حمى الأضواء الهاربة أمام بصري كطلقات الرصاص. وقاطعتني أروى:

- دراجتي النارية كفيلة بغزو الفضاء..

- أجل، هذا ما يبدو..

سايرتها في تعليقها العفوي المشطور برياح السعادة. ومررنا بالقرب من مؤسسة ديكارت، وقد غاصت في غلالة حالمة من الضوء والسكون، كان الرصيف الواسع خالياً من الخلق والأشياء. وعطفنا سريعاً إلى اليمين في اتجاه (الحطبة)، لاحظت ذلك فتساءلت:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

جاءني الجواب:

- إلى دنيا النعيم.

فعقبت عليها ولما تنته موجة الضحك:

- ولكن الطريق إلى الجنة ليس من هنا...

- سترين أننا في الاتجاه الصحيح.

كان صبري كفيلاً بالنفاد لولا أنني أعرف من هي أروى. هكذا كانت: غامضة تمطرك بالانتظار كالأيام. وهي أشد تنكيلاً بالنفس حين تعدك بشيء فلا يتحقق حتى ينهار الصبر والحلم والمصابرة جميعاً، وتقول متى هو؟

* * *

- هه.. ما رأيك؟!

توزع النظر بين الحديقة المبشرة بالنضرة والحياة. والمسبح المتربع على الجانب الأيسر السابح في مسبح آخر من الظلام الشفاف. تراقصت مياه المسبح وراء ستار الليل. البيت صغير يحاكي منازل إفران. يتدثر بمعطف نباتي من زهور اللبلاب، يطل نور ناعس لا رغبة له في الضوضاء من النافذة العالية القوام. المشرفة المحاطة بشباك غرناطي أسود. وشجرة التوت المطلة أغصانها على أرض الشرفة. أنوار قوية نفاذة تتطاول بأذرعها الهلامية إلى الفضاء. وقلت في ارتياح:

– مكان مريح..

– أقصد المسيو روبرتو.

تأملتها قبل الكلام، لم تكن الأعماق قد تخلّصت من الرهبة بعد، قلت في نفسي: إن الغامض والجديد والمجهول، دوماً لا يخلو من رهبة، ولكن العبرة بالخاتمة والخاتمة فيها ثمار للاكتشاف وتلك هي اللذة المنتظرة. استرجعت صورة الوجه المترهل المنتفخ الأوداج.

أنبأت الصورة عن كبر مبالغ فيه. لكن أنبأت عيناه عن حيوية طافحة. وبريق يعلن عن سر لم أتبينه.. حين وقف أمامنا وهو يرفل كالعريس في بيجامته الحريرية ضاحكاً، ازداد شعوري بسلطة المكان والأشياء من حولي.. حتى أنت يا مسيو روبرتو لم تخل من صولة وجاذبية! وإن استغاث شيء في الأعماق. ما دام هذا الشيء لم يعلن عن نفسه، ولم يكشف عن أوراقه فلا يهم. الأهم هو الكشف والنصرة والمعية. وقلت لها بامتنان:

– إنه لطيف..

– فقط؟

– ولطيف أيضاً..

ضحكنا بحذر، واقتربت مني تفضي إليّ ببعض المستور:

– وهو يهودي من إيطاليا..

استنكرت الهمس، وتوقفت عن التفكير لحظات أو ربما غصت فيه. ماذا يعني عندي أنه يهودي؟!

إن الدين عندي هو الإنسانية. أو هو الإنسان نفسه. ماذا يعني عندي أنه يهودي من إيطاليا؟

لا شيء البتة، ولكن الإحساس بالفجأة والطرافة لم يفارقني.. في مرحلة ما من العمر، نفقد الإحساس بالمعنى، أية دلالة لذلك ؟ يهودي!! طرقت هذه الكلمة سمعي، ثم سقطت على الأرض محدثة رنيناً بلا معنى.. بلا مناسبة تذكرت حسام، تخيلته يشارك في نادي النجمة عضواً كامل العضوية، ضحكت وأنا أدرى الخلائق بالسبب. ولكن أحياناً تضحك بلا مناسبة وبلا سبب. طوقتني رائحة فتاكة زكية فسكرت كأنما لست على اليابسة، ورغم الكبر البادي على المسيو روبرتو فقد كان أنيقاً للغاية، قلت له قبل أن يذهب لتغيير ملابسه: إن الصداقة الحقة والرضى هو ما نطمح إليه. أجابني وقد تهللت أساريره، ونطقت عيناه مرة أخرى بذلك الشيء الذي لم أتبينه:

- في نادي النجمة تختفي كافة العاهات؟ فقرّي عيناً.

ثم التفت إلى أروى يحادثها كصديق قديم:

- بالأمس قرأت في برجي أن كوكباً جديداً سيولد في الفضاء... اكتفيت بالابتسام بيد أن أروى كانت بالمرصاد:

- صدق برجك يا مسيو روبرتو...

- كثيراً ما تكذب الأبراج..

- وكثيراً ما تصدق..

- ولكننا غالباً ما نكون في غفلة الأرض..

- إذا كانت السماء يقظة، فلا تهم غفلة الأرض..

وضحكنا..

- بل لا قيمة ليقظة السماء في هذه الحالة...

والتفت إليّ مبتسماً بوداد صادق لم أقدر على تكذيبه:

- هه، اعتبرينا أسرتك الثانية يا ربا..

- أشكرك يا مسيو روبرتو..

* * *

ها هو ذا الشيء الغامض من جديد، غامض ولكن الاستغاثة أقوى فلا تسكت في الأعماق، كيف تصبح أنت الواحد اثنين أو ثلاثة أو أكثر ؟ الجواب سيكون سهلاً حين تفسر ظاهرة في الاكتشاف، وهذا صوت جديد ينضاف على زمرة التناقضات ورهط الأضداد: الإقدام.. الإقدام. وقال لي كالمحذر:

- إياكِ أن تهجرينا...

لا أعني ذلك يا مسيو روبرتو..

تدخلت أروى كالمحذرة أيضاً، لكن الخطاب لم يكن لي:

- إنها سريعة الملل أيها الزعيم، فلا تصدق الأماني...

وطلبت منها ألا تستدرجني للكلام، فنحن في هذا الهم سواء، والتفت إلى النافذة المطلة على الحديقة وغصت في الظلام. قلت: إن

الليل سرعان ما يرحل، ولكن النهار أيضاً يعشق الرحيل فأي معنى لاقتحام حجرة في ظلام كظلام الحديقة؟ وأعادني الرجل الأنيق إلى النادي:

- عندك كل ما يبشر بحياة حميمة.

(همست أروى):

- يقصد في نادي النجمة..

- أملنا يسير نحو إعادة بناء قيم جديدة في دنيا غرد في أطلالها الخراب!!!

وقلت في تعجب، واستفهام:

- أنضطر حقاً إلى ذلك؟..

- أجل، حين تنطفىء آخر الشموس فعلينا أن نشعل شموعنا البدائية، هذه هي السعادة.. قال ذلك فاتحاً ذراعيه حتى الآخر.. وانطلقت بلا سابق إنذار، صيحة زاخرة بالحيوية، من ناحية الباب الكبير:

- بونسوار يا مسيو روبرتو..

فقالت أروى ضاحكة:

- هذا أخي إلياس..

عقب المسيو روبرتو بمرح:

- إذن فعلى جلستنا الهادئة السلام.

أما القادم الجديد فقد كان في ربيع العمر، عنيد النظرات، ودود الحركات، ثرثاراً كالحسين أو أكثر.

- تقدم يا جلال..

- أهناك ضيف جديد؟..

- أجل يا مسيو روبرتو، ضيف جديد، جديد، جديد.

ضحكنا، بلا تحفظ أو خجل أو ارتباك ضحكنا. حتى الشاب الأحور العينين، الدقيق الشفتين، شاركنا تيار الضحك، ولكن كان يتعثر في شيء كالخجل أو الحزن، تذكرت حساماً للمرة الثالثة وقد تكون العاشرة، فكرت في انهيار الفوارق، وقلت لا خالق للطبقات كالاعتقادات، ولا هادم لها كهادم الطبقات، كالانضواء تحت نادي النجمة، في ظل داعي المسرّات..

* * *

قد يكون ما وحَّد بيننا هو البحث عن شيء مشترك، لكن ما هو ؟ قالت أروى: إنه الجديد على الإطلاق. وقال الكهل الأنيق: إنه إعادة البناء على الإطلاق. أما إلياس فقد قهقه كالسلطان، وقال باستهتار: افترضوا ما شئتم، أما أنا فأقول: إنه البحث عن المعنى على الإطلاق. وظل جلال صامتاً حتى ظننت أنه بلا لسان. وظن آخر أو أخرى أنه خجول، أما أنا فقد خرجت أخيراً من ذاتي لأعلن انضمامي الأبدي:

- أو لنقل: إن السعادة ما نريد...

- صدقت يا ربا، ولكن أين الطريق؟

- الطريق في الحرية.

- أو لتكن في الكشف.

- بل في الهدم.

- قال حسام: أحياناً يتقدس القديم في ذاته..

- حفريات قديمة..

- تباً لحسامك هذا..

- احذروا. . إنه من أقرباء ربا..

- ولو..

والتفت المسيو روبرتو إلى جلال.

- هل أنت صامت محترف يا جلال.. شاركنا!

تعثّر في الصمت، الخجل.. الصمت ثم الخجل. أخيراً قال بصوت مبحوح:

- أكتفي بالسماع.

- هذا ما تحرمه الأعراف الداخلية.. شاركنا!.

تردد قليلاً ثم قال:

- أوافق أروى.. إنه في الكشف..

المشهد السابع

لا يزال صدى الليلة الذاهبة معسكراً في الوعي، تذوقت طعمها فبشرتي بكل جديد، أما الخلاص من الرقابة فقد آمنت أنه واقع لا محالة، تساءلت باستغراب عما ينقصني؟! أجبت عن نفسي ومدافعة عن المجهول -لاشيء البتة. بيد أن مخلوقاً يعتصم بداخلي يهتف: كذبت! كذبت! اقتنعت أنني وصلت لآخر الدنيا. كنت مكتفية بما أحصل عليه من كف الحياة، فمنحتها رضاي بلا مقاومة. ولكن! هل كنت سعيدة؟ ذلك هو سؤال الأسئلة. والجواب عنه لا يكون سوى في تعريف السعادة نفسها. لقد كنت راضية حقاً عن الحياة. بيد أني كنت بعيدة للغاية عن مرفأ الاستقرار، شيء ما في عقلي أو روحي يحتج عن نقصان شيء ما، كامن في الناس أو في الأشياء، أما القلب فسادر تحت الأرض السابعة..

ذلك النقصان الكامن هنا أو هناك هو ما أبحث عنه في نادي النجمة، بين يدي الأصدقاء... الهروب من التشيؤ هو الأمنية. التشيؤ هو الصياد ونحن الطرائد. الظفر بطعم حقيقي لعلاقات حقيقية غير مزيفة هو سبط الأمنية. إذن فقد وجدتها! من الزّيف نحن هربنا. لكن، ألا نكون فيه قد سقطنا؟! ها هو ذا الخوف يريد تنفيذ المؤامرة... فلنجرب لعبة النسيان، ولتتساقط علينا شآبيب التمرد على المألوف. لندخل بعيداً في أمشاج المتعة حتى تأتي لحظة الإشراق.

لحظة الإشراق ما نريد، رحماك أيها السبت العزيز!!

* * *

السبت. يوم الخروج عن نطاق العادة. الخروج عن طوقها مهما تكن جميلة أو مترعة بالمسرات، فالتكرار لا يعدله منغص في الوجود، فضلاً عن أن لقاء الأصدقاء في النجمة لا تعدله متعة في البيت أو أي كوكب آخر. شيء ما يضيفه لقاؤنا، لست أسميه! ولكنه يقضي على التكرار على أية حال، وينبجس بتدفق الغرائب كما تنبجس المياه من الحجارة الصلدة:

- ما رأيكم في الركوب إلى الجنة؟!

- رائع، ولكن أخبرنا أولاً عن الجحيم..

- إنه السياسة..

- لا، بل إنه التقدم إلى الوراء..

ضاق الفضاء بقهقهاتنا المستهترة بكل شيء..

- كلا، بل العودة إلى الوراء هي الجحيم نفسه...

- ولكن ما الوراء؟!...

- أوه! عدنا إلى البحث عن المعنى..

- لا متعة بدون معنى..

- حرمت عليكم الفلسفة، والسفسطة وكشف المعنى...

ضاق الفضاء أكثر.

- زدنا أيها الفيلسوف الوليد..

فيقول جلال وقد لعب البيرة برأسه:

- ما يهمكم الآن هو البقاء في الجنّة..

- إنها في (الويسكي) ولا شك..

- بل في هذا الحشـ .. يـ ش. . ش. . ش !!

انفجر الفضاء، وانطبقت السماوات على الأرضين.

- أقول لكم. بل فيهما معاً. .

يلتفت إلياس إليَّ وجسده لا يزال يهتز على إيقاع الموسيقى.

- وما رأيك أنت يا ربا؟

- ليست الفلسفة من طبعي...

- إذن فطبعك الحب!!

ضحكنا معاً.

- كيف عرفت ذلك؟

- بسيطة. الحب عدو الفلسفة.

وتواضع الزعيم من عليائه فتفضل بالعزف على غيتارته البرونزية، تمادى في العزف فعادت النفوس إلى ملكوت الضلال وصاحت أروى بحماس سكران:

- عاشت إيطاليا..

انحنى لها المسيو روبرتو بامتنان، وتابع عزفه الحزين.

ومع الأيام، عربدت الشهوات في زوايا الحديقة، ويوماً ضبطت أروى وقد حاصرها جلال في الظلام فأشارت عليّ بالذهاب.

هجرنا الحياة واعتصمنا بالدخان وترجيع الألحان، وخشع الجسد أمام سلطان الغواية فشهدت الحجرة الزرقاء في الطابق الأعلى حالات من الإجهاض، وحالات أخرى من إعادة الإجهاض.. لست أكذب حين أعترف أنني لم أمر بهذه التجربة، ولكنها فظيعة.. فظيعة..

* * *

على أنني لا أبرئ نفسي.. فقد كانت تلك النفس أمارة بشتى صنوف الفسق المجاهر. إن التهافت لبالمرصاد. وإن الغواية لتملأ الأبواب، فكيف يعقل ألا يسقط من لم يكن في قلبه مثقال حبة خردل من استكبار حسام على الدنيا؟! أكثر من مرة استسلمت للنداء، ولكن! أتكون الأقدار قد خبأت في جبّتها صفحة لم أعرفها؟ الغواية رافقتها، والنزوات عبدتها والضلال شرب كؤوسه الكريهة حتى الثمالة، فماذا يبقى يا ترى في قلب الأيام؟ ها هو إلياس يحجب عن الباطن أي أمل في البحث عن المعنى، التقينا في الغد وكنت كئيبة النفس، التفت إليه وكنا في الطريق إلى سينما الزهوة:

– قل لي يا إلياس، ماذا نريد أكثر مما حصلنا عليه؟

قهقه عالياً باستهتار ثم بادرني:

- أعطيني، سيجارة (إمبريالية) أولاً..

-لم تعد عندي سجائر، لم هي (إمبريالية)؟

قلت ذلك وقد وجدت في كلامه فرجة.

- هكذا يتهمون أمريكا..

- ليكن، ماذا نريد أكثر؟

- سؤالك دليل على أنك لم تشبعي بعد.

- لقد أغرقني الملل..

- هذا دليل صحة..

- ماذا تعني؟..

- لا أعني شيئاً.

- هذا جنون..

قال وهو يضع يده على كتفي:

- الجنون غايتنا..

غرقت في الضباب، لكنني على طريقة إلياس ضحكت عالياً حتى لفت انتباه المارّة..

* * *

ربما كان ذلك غريباً، ولكنني نجحت في (الباكلوريا).. كان أبي لا يؤمن بإمكان ذلك، لذلك فقد التفت إلي باندهاش متسائلاً:

- إذن فقد نجحت!..

- نعم يا أبي..

كنا في هذا المساء مجتمعين في جلسة عائلية قلّما تحدث في البيت، كنت أنصت إلى أبي وأتأمل حساماً الذي لم يتخل بعد عن هدوئه المبالغ فيه. وتابع أبي:

- أنت على أبواب الجامعة هه!

وتدخلت أمي عزيزة مباهية:

- والأدب الفرنسي ينتظر..

- لا مستقبل للأدب..

لوَّح أبي باستهانة.

- يهيأ لك فقط..

- هكذا أسمع في البرلمان..

واستدرك:

- لِمَ لَمْ تختاري طريقاً آخر..

- تقصد العلوم؟..

- أو الهندسة أو أي شعبة أخرى..

- الكل في المنفعة سواء!

- ولكن الهندسة أو الطب مربح أكثر..

ابتسم حسام في صمت، لكن أبي رآه فالتفت إليه:

- ما رأيك في هذا يا حسام؟

قال حسام بأدب:

- الاختيار الرشيد هو الأهم يا أبت..

- ولكن الأدب..

- مجلس النواب يغص بالأدباء..

قهقه أبي الحاج ثم قال:

- ولذلك نزلت عليه اللعنة. .

- بهذا القياس حتى قطاع الصحة نزلت عليه اللعنة..

وتدخلت أمي ساخرة بعد أن ضحكت عالياً:

- عش رجباً ترَ عجباً..

وتابع حسام وحسبته يقصد بكلامه أمي عزيزة:

- ها هو ذا مرض القلوب هو لعنة العصر، فماذا يفعل الطبيب؟

- لكل داء دواء..

- صدقت يا أبت. فليس بالطب وحده يحيا الإنسان.

كان حسام يتكلم أو يدافع عني! أردت أن أحييّه كما حيّاني فعقبت عليه مؤمِّنة:

- صدق حسام... ليس بالطب وحده يحيا الإنسان..

ها هنا ضحك أبي عالياً، ثم علّق على قولي ساخراً:

- ليت حساماً نائب في مجلس النواب!!

ضحكت أمي عزيزة وقالت ساخرة:

- هيهات هيهات!!

قال أبي بنفس النبرة:

-لم؟! ألا ترين أنه يحسن الكلام؟!....

المشهد الثامن

هلَّ الصيف حاملاً معه عصر التحولات.. تغيّر الزمان كما فعل المكان، فجاء موسم الهجرة بعيداً عن الرباط، ولكن مارتيل هي سيدة البلدان، قال لي حسام - ولأول مرة يبادرني بالكلام - إنها غاصة جداً وتبدو مستهترة إلى حدود العذاب. ولكنها في باقي الفصول تبدو وكأنها تطهّرت من كل شيء.. أما أنا فيعجبني الانصياع للعريدة بين الخلق، هذا زمان الخلق فانطلق! وهذا زمان الانطلاق.. أما الشتاء وقبله الخريف فله كلام آخر.. هاجمتني نزوة طارئة فقلت لحسام:

- سأذهب معك..

- ولكن لن يعجبك المكان..

- سأذهب معك..

- أنا ذاهب إلى أطراف مارتيل..

- سأذهب معك..

استسلم لعنادي كأنه لا يصدق، جعلنا البحر وراء الظهر واتجهنا صوب البريد، مارتيل جميلة، ودودة صغيرة، لذلك سرعان ما وصلنا إلى طريق الكلية، وقبل قليل خاطبني عن سبب هذه الرغبة الطارئة فلم أجد الجواب. قلت له: أتراني رفيقاً ثقيلاً، فقال: معاذ الله! ولكنك لم تخرجي معي من قبل. قلت له: والآن فعلت. فرفع كلتا يديه ضاحكاً كالمعترف بواقع كان من ضمن المستحيلات.. هذه الحركة

تعني أن حساماً استسلم نهائياً، لذلك سررت، لم أطق صبراً فتساءلت:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- إلى أطراف المدينة..

- ولماذا الأطراف؟..

ضحك من القلب، كأن التي كلمته طفلة ساذجة:

- أحب الهدوء..

- لماذا لا تذهب إلى السينما؟..

- جئنا من الرباط لنتطهر من الحضارة!..

أحنقني جوابه المستهتر بالمقدسات!! فطغى استيائي وتراجع اللسان:

- عفواً، ما أردت الإساءة..

- ولكنك تكره السينما..

- بل أكره الفساد..

- خبرني عما تحب بالضبط يا حسام..

أجابني بصوت نقي النبرات:

- النقاء والصدق والصلاة..

تساءلت ساخرة، لكن دون التخلي عن اللياقة:

- وما دخل الصلاة ؟

- هي عمود الحياة..

كنا قد قطعنا شوطاً في طريق الكلية، لم أشأ التعليق فقد وجدت دنيا حسام طاغية بالغرابة، من أين تجمع هذه النوادر العجيبة؟ ليس لدينا في البيت شيء من ذلك، ولكن حساماً يبشر بأحلامه كأنه آت من أعماق الفضاء، خفَّ ميزان الطريق من قلة الخلق، وتداعى علينا الهدوء، إلا من أزيز السيارات المارة بجانبنا كالسهام. أطلقت سراح بصري فامتدت الأرض أمامي تدعوني للسفر. أراض منبسطة تحبل بالقصب، والأعشاب، وبعضها يطولها البناء، كانت أسراب من الأطيار منهمكة في التحليق، أما الريح فقد كانت منهمكة هي الأخرى في حديث ودود مع الأغصان، لعلها تحادثها عما حملته معها من أسرار البحر.. بزغت عن كثب من جهة اليمين غابة من أشجار الكليط وقد أظلّت أرضاً معشوشبة، عرجنا نحوها وهو يبادرني:

- تلك هي الكلية، وهذه حديقتها.

تأملت البناء القصير الجدران، طابور النوافذ الزجاجية، القرميد والشبابيك، كان كل ذلك غارقاً في الصمت والفراغ.

- كلية الآداب.

أحسست أني أتخلص كلياً من الصخب، وأني أدخل رويداً في مملكة بلا حدود، دنياك لا تخلو من سحر، تذكرت البيت الجاثم بين البحر

وإقطاع أبي، غصت في طوفان من الأشواق، تذكرت الطفولة وطيور السنونو وأحلام سندباد، فار التنور وغبت في موج طاغ من الذكريات. انجلى الشوق فلم أعد أذكر غير الطفولة.

- هه. نحن هنا..

عدت من الطوفان، واستوى الوعي على الحاضر، سألت حساماً بحنان:

- أتذكر الطفولة يا حسام؟

- ومن لا يذكر الطفولة؟

تابعت في سهوم:

- وبيتنا الكبير كالسلطان...

- تلك أيام خلت..

- إني أذكرها الآن..

وقال ضاحكاً:

- عسى أن تنفع الذكرى..

- إذن تعود شقاوة الطفولة إن نفعت الذكرى.

ترددت قهقهاتنا بين أشجار الكليط، كنا قد نفذنا طوافاً بطيئاً بالحديقة الخالية، وانتهى بنا المطاف إلى كرسي ممدود من حديد، كان هناك مقهى مهجور على شكل دائرة، بعد أن سكت عنا الضحك استدرك حسام:

- ها أنت تذكرين الماضي..

- يرجع الفضل لأطراف مارتيل..

وداعبته في سرور:

- حتى الرباط تملأ شواطئ وأطرافاً..

قال بجزم:

- ليس الرباط كمارتيل..

تذكرت دنياي الصاخبة، النجمة ولافونتين وديكارت والزهوة وقارات أخرى.. فأيقنت أن الكون يملك مجرات بعدد ذرات الهواء، ووجهت إليه سؤالاً جاداً للغاية:

- قل لي يا حسام، أتقضي الحياة في صمتٍ مقيم؟

تأملني. ثم حوّل بصره إلى الكلية.

- ماذا تقصدين أنت بالصمت؟

- أقصد. أليس في دنياك شيء آخر غير الكتاب؟

- وماذا في ذلك؟

- أبداً، رغبة في المعرفة.

- عرفت الحياة خارج أسوار الصخب!!

مرة أخرى أغضبني اعتداؤه على المقدسات، قررت اقتحامه عقاباً، فاجأته بسؤال كالصاروخ:

- قل لي يا حسام أليس في دنياك امرأة؟!!..

التفت إليّ. وضحك حتى دمعت عيناه، وصلني صوته النقي ولما يزايله الضحك، قال بهدوء:

- هلمي نعد يا ربا.

* * *

طويت الرسالة ولما أتخلص من طعم الحروف، انساب فكري مع ما تحمله الحروف من مواضيع بحجم الأرض: السفر والغضب وحتى الحب. من الأحق بالغضب يا عزيزتي أروى؟ أخوك كان يريد طي المسافات بسرعة الصوت، في حين أنه لا يملك سوى أرجل السلحفاة، تعالي إلى مارتيل تنبئك بما لا تشائين، قلت لي: دعي عنك بقايا القرية، وأنا أقول ذلك: دعي عنك الخيال وما بقي من الكلام، أبحث عن مجهول ما، وليس إلياس من يمنح ذلك.

طويت الرسالة، وتداعى الفكر بعيداً إلى أطراف مارتيل، أليس في دنياك امرأة يا حسام؟ ضحك حتى دمعت عيناه، ولكني لم أكن راغبة في ضحك حتى انبجاس الدمع، كنت صادقة فأعدت السؤال، قال لي وهو يداري الحصار: أنت اليوم لست على بروجك، فأحكمت عليه طوق الحصار وقد جعلنا حديقة الكلية وراء الظهر:

- أقصد، ما معنى الحب في نظرك ؟

-لم أفهم.

- ماذا تفعل إذا أحبتك امرأة ؟

- أقول لها شكراً..

علق ضاحكاً ونحن نقطع الطريق إلى الرصيف الآخر، وماذا بعد؟ أجاب:

- ويطوى السجل على الكتاب؟

-لم أفهم.

- ولا أنا، ماذا تقصدين أنت بالحب؟

حاصرني السؤال كما حاصرت الأسئلة الشفوية الصعبة نواب (البرلمان): لم أكن أنتظر غير الأجوبة، أردت أن أعود إلى خندقي الأول:

- إني أسألك فلماذا أنت كالهارب!؟

- الحب هو الأخلاق..

-لم أفهم..

قال وهو يتأملني واقفاً:

- حينما يتصالح العقل مع القلب على الأرض، سيوقعان على معاهدة حسن الجوار...

قلت في استنكار:

- يا لك من غامض!

- ويا له من سؤال!

أعدت قراءة الرسالة القصيرة التي جاءتني من بوردو، عاد إليّ طعم الحروف ولكن ممزوجاً بغرابة الأجوبة.. بدأ حسام يحتل مكاناً

ما في اهتماماتي. لم يعد ذلك الطفل الضعيف الطيب كالبليد، أصبح قوياً وحتى قوته غامضة ولكنها كاسحة، من أية مجرة تأخذ أفكارك أيها الإنسان الجديد؟ أنت تعيش في بيت الحاج السعداوي كاللاجئ فسرعان ما تختطفك قوة خفية وتغادر أثرها البيت إلى المجهول، أتراك عضواً في ناد كالنجمة؟!!

اعتقدت أن اجتماع البياض والسواد على كلمة سواء أسهل من ذلك. وتوارت الرسالة القصيرة مرات وراء غرابة الأجوبة، وتوارت غرابة الأجوبة مرات وراء طعم الرسالة.

* * *

أجل. .. وقع تماهٍ عجيب بينهما، ولكن إلى أمد قصير..

فالأيام التي قضيناها جميعاً في مارتيل، لا تزال عصية على النسيان، ذهبت إلى تغيير المكان وتجديد الزمان، وعدت وقد ظفرت بمعية زاهدة لم تكن على البال، لم تتكرر هذه المعية الرائعة رغم طغيان التمني. تكلمت معه في المتعة والبحر والموسيقى والحب، وخاطبني في الوعي الجماعي والثورة والدين والسياسة والظلم والعدالة الاجتماعية، أحسست بثقل الكلمات ولكن أعماقي لم تهضمها بسرعة فلفظتها إلى غير رجعة. بيد أن لذة المجهول ورهبته بقيت متشبثة بتلابيب الذاكرة، بدأت أفكر في استحالة التعايش بين عوالمنا المتنافرة إلى حد التضاد، حدثتني النفس الأمارة بالغرائب أن أسومه الهوان كبيراً، كما سمته الهوان صغيراً، وما أسهل ذلك عليّ أمام إنسان يعيش في بيتنا على وجه الخير!!! ذلك قدر اللقيط!!

ولكن، ما الأمر؟ إن دنيا حسام تستهويني. إني لا أفهم في عوالمه الزاخرة بالتضارب، ولست أريد أن أفهم، أتراني مللت دنياي فبدأت أبحث عن تجربة للإبحار؟ ربما..

فحتى نادي النجمة مر على معرفتي به سنتان، ولكن، حتى دنيا حسام تستهويني...

- أتراني جننت؟!

سألت نفسي، وأنا أضحك في السر: لم يبق غير بطن الأرض أو جوف السماء فأين المسير؟

سخرت من نفسي. بل أنكرت عليها تهافتها الباطني. ولكني لم أستطع التخلص من سلطان المجهول الآتي؟. . ففكرت في الهجرة من جديد..

قلت إن مارتيل أصبحت عصية على النسيان. أصبحت حياة تمطرني بالقداسة، والطغيان، والتيه. ما أسهل أن نقدس نحن البشر الأشياء أو الذكريات!! آمنت بأن القلب ليس ملجأ للعواطف ولكن أيضاً خيمة للسعير الذي نبحث عنه ونرغب فيه... أما مارتيل فهي سر الأسرار، ومهوى السعادة وهيكل التغيرات الأبدية. لم أكن أعلم أن المكان يملك سطوة الطغاة. ولكن، لا طاغية سوى الإنسان! أجل، لا طاغية غير الإنسان!. . فما تقدست الأشياء والأحياء في مارتيل إلا لطغيان الزاهد المستكبر على الوجدان..

ها هي ذي مارتيل - كما قال لي في الصيف - قد تطهّرت من كل شيء.. أجل إنها قد تخلصت من استهتار الأمس وعربدة الليالي.

لفظت أخيراً بكل الصخب والضلال في قاع النهر، حتى المقاهي تجللت بالسكينة كأنما تقف بصمت ترحماً على عهود الفسق الذي جاهرت به الخلائق والأشياء.. فما أعذب العودة إلى مكان عزيز بعد أن يصبح رمزاً لماضٍ عزيز! فلتكنْ هذه العودة- وقد توقف الزمان حائراً بين حزن الخريف وظلم الشتاء- اعتكافاً في هيكل الأمكنة العابقة باللذة والمعاناة. المباركة بالرفقة والمعية والإبحار في سماوات لم يطأها بصر ولا فكر من قبل. ألم يذكر حسام أن الخريف والشتاء في مارتيل له كلام آخر؟! بلى..

إن الزمن نفسه، بكل ما يطويه من تقلبات الصباح والمساء، والليل والسحر والفجر والغسق، كل ذلك في مارتيل له كلام آخر.. حتى المشي الشريد الوحيد على رصيف الشاطىء البحري، والتحلي بتداعي أسراب الطير بين الموج والساحل. له كلام آخر، حتى الجلوس في مقهى النهر - الريو- وقد خلت من الأحياء إلا قليلاً، واحتساء القهوة، مع الصمت المصلت على البصر والفؤاد، له طعم آخر.. التسكع في الشوارع الخالية النظيفة المغسولة بالمطر، امتلاء الرئتين المحترقتين بالهواء المنتعش الراقص بنشوة البحر، الإبحار بقارب صغير يتيم بعيداً عن الساحل، ساعة الشروق الضاحك، الوقوف على ضفة النهر النازح على الأرض ببطء كجرح جديد. التأمل في الزبد والخز وما لا يعد من الطحالب والنبات. طيور النورس المتعبدة أبداً في كل الشواطىء، كل ذلك، وأكثر من ذلك يا قلبي، له كلام آخر.. وطعم وشكل آخر...

ها هي ذي مارتيل. وها هي ذي أنا..

أستسلم لإرادتها الخفية التي ما فتئت تحلم بإفشاء أسرار أخرى للسحر والطغيان، عدت إليها لا أدري ما الدافع إلى ذلك، قد تكون نزوة أو رغبة أو عطشاً دفيناً. هكذا فكرت في أول الأمر. . لكن، رباه ! ماذا يقع في هذا الكيان؟! إنه التشقق والولادة أو الانهيار..

تركت معاقل الشهوات في أكدال السفلى والعليا، وجئت لأترهبن في مدينة بأقصى البلاد..

لكن أيُّنا يقدر على مقاومة الرغبة في الهجرة إذا ما استعمرت القلب!؟ القلب المصاب بفقدان المناعة، أحياناً يصيبنا شيء هو الملل والجنون والعبث - اختر ما تشاء! نتصرف آنئذ بغرائزنا أو بآلة أخرى لست أسميها. ولكن ما دام الأمر يتعلق بسيدة البلدان، لا يهم: بلد الرفقة، وحضن الأسئلة، ومعقل الذكريات. . لا يهم حتى نادي النجمة الزاخر بالشهوات، حتى تهافت إلياس. حتى نشوة التطلع إلى المجد في سلم الغرب...

نزلت بمارتيل، بعد أن رست على شاطىء الصمت والرزانة والسكينة. وبعد أن أربكها الإعياء فتهاوت على سرير الشتاء الدافىء جئت كالمجنونة أشاور الأشياء على ما أنا مقدمة عليه، لم يكفني التفكير هناك. فهربت إلى سيدة البلدان، ماذا أريد يا رب؟

حسام أم أفكار حسام؟ عناده أم استكباره أم زهده أم رجولته أم ماذا أيها الرب؟! أحدّثه عن الحب، ويحدثني عن الثورة على الذات. أحدثه في الأحلام ويحدثني في العدل الاجتماعي، يا له من متكبر عنيد !! حتى الناس في ديكارت ولافونتين متواضعون لا يفعلون ذلك !! جلست

طويلاً في غابة الكليط أستمد الرشاد من العشب والحجارة، قلت لنفسي بصوت خلا مَن الحياء والحشمة: إنني أحس نحوه بمشاعر مشتعلة كالنار، وقلت لها: إنّ كياني أحياناً يحترق بلا سبب. وإن عينيّ تمطران بلا سبب. وإن جسدي يعذبني بلا سبب، قلت لها أخيراً بصوت خلا من الحشمة والحياء: آن لي أن أعترف بأني أحببته. قالت لي نفسي: أأحببته بحبك الخاشع في محراب الشهوات أم بحبه المتبتل في عوالم لا تدركين لها طعماً؟!!

عجزت عن الجواب، ووجدت الحلم ملاذاً للضعفاء:

- الحب هو الأخلاق.
- اللعنة.
- هذا إيماني.
- أنت متكبر عنيد.
- أنت تحتاجين إلى الراحة.
- أنا محتاجة إليك.
- بودي لو أخدمك.. ولكن..
- ولكن..

أستيقظ على جسد رجل يجلس بجانبي. أعود إلى حاضري من ثورة الحلم. أقوم من مكاني وأنا ألعن الرجل المتطفل في سري. أقطع الممر المعشوشب بالحجارة جيئة وإياباً. أتأمل بناء الكلية المحاط بالحياة.. الحياة التي زرعتها فيه رهوط الطلبة زرافات ووحداناً..

أتأمل ذلك. وأتدحرج إلى طبقات نفسي:

- حدثني عن نفسك يا حسام.

- أحلم بإصلاح الخلائق..

- أنت تحلم بالمستحيل!

ضحكت بشفقة..

- أنا أحلم بالممكن. أما المستحيل فهو هذا الواقع.

- يا لك من غامض دوماً!.

جاء صوته من وراء السحاب:

- ادخلي إلى دنيا الإيمان، فينكشف الغموض..

- أؤمن بالحب.

- وأنا أيضاً أؤمن بالحب.

- أي حب تعني؟

- ليس هناك إلا حب واحد.

- إذن...؟!!

* * *

مرة أخرى أستيقظ على صوت رجل يطالبني بالبطاقة. أُعدت إلى الحاضر تاركة ورائي دخان الحلم، وجدت شرطياً مدججاً بالسلاح، الهراوة في اليمين وشيء آخر في الشمال. الخوذة على الرأس والشر في العينين. البزّة الداكنة على الجسد، والغضب في الشفتين واللسان والرجلين..

لم أفهم شيئاً..!! ولكنه لكزني بخشونة لم أتحملها..

- قلت لك: البطاقة..

تحلّق حولي أربعة آخرون. مدججون بالغضب والجرأة والهراوات.

لم أفهم! ولكنني فهمت أن البطاقة هي شاطىء الأمان. حدّق العسكري في بطاقتي بغضب مفلس من المعنى.. ووجه إليّ تحقيقاته:

- ماذا تفعلين هنا؟

- أبداً، أنا في عطلة..

ضحك العساكر الأربعة من حولي..

- ألا تدرين أن الإضراب..؟!

- لا أفهم عما تتكلم..

- هكذا أنتم لا تفهمون إلا...

- من فضلك، أنا بنت الحاج السعداوي..

ضحك العساكر الأربعة..

- ونحن أبناء الهراوة أيها الرهط...

أدركت أن العبث هو ما أنا فيه، قلت لأخلص نفسي:

- صدقني أنا زائرة فقط.

- إذن، غادري الحديقة فوراً.

قلت لنفسي، وأنا ألعن الهراوات، هذا هو وجهك الآخر يا مارتيل!.. اشتعل الغضب المدلل في رأسي حتى تخيلت أني أطالب

بالديمقراطية من منصة البرلمان. وتمادى بي الخيال المجروح بالقهر، حتى رأيت أبي الذي لا يقهره شيء!!!! يطالب - كحسام - بالعدل والعقل والإصلاح، فتنهار أمامه السدود، ولكني أفقت على أن أبي يجهل القراءة السديدة، فكيف بهذه الألغاز التي يتغنى بها حبيبي العنيد.. ويلاه! ماذا قلت؟! وأية قوة أنطقت لساني بهذا اللفظ الجهنمي المنذر بالرغبة؟! حبيبي....

وكررتها مراراً بتلذذ جائع كالثور الهائج، كالهارب من سجن مزمن يتذوق طعم الهواء بعد عمر طويل من الإقبار.. ضحكت طويلاً وأنا أقف وحيدة على ضفة المصب.

تأملت النورس وهو ينتقل بين الساحل والماء ومن المصب إلى البحر، ومن السماء إلى الأرض، ولكن أين العجب في ذلك؟! فها هنا في هذا الصدر المملوء بالفسق، تجتمع أشياء شاسعة متناقضة كالقارات الخمس، مشتعلة بنيران المعابد البدائية. . يا للشيطان ! أيقبل حسام أن يخوض معي في عالمي الضال؟ أأقف أمامه بلا حشمة ولا حياء، ثم أقول له ما يجول هنا.. في هذه النفس؟

* * *

آخر ليلة في تطوان: السماء قررت إعطاء الأرض درساً لن تنساه، فنزلت الأمطار مدراراً. أصبح الفضاء المظلم خيوطاً موصولة مع الأعلى، تلك هي قطرات المطر الغزيرة التي تشكلت على الهيئة التي تراد لها، وأخيراً، توقفت سيارة الأجرة الزرقاء أمام المنزل، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً.

نزل الميتروبول. الحجرة المربعة في الطابق الرابع. السرير الأحمر النظيف، الدوش المحاط بستار البلاستيك. الصمت ثم الصمت في الممر المؤدي إلى السلم الحلزوني في اتجاه الطابق الأسفل، عدت إليه وأنا في غاية التعب، ورياح يناير الباردة تصفع وجهي بصفاقة كأنها ترحب بي أو تطردني من جديد، لم أعرها اهتماماً فقد كنت ملتهبة الأعماق وكنت قد اشتريت بعض البيرة، ورغبت أخيراً في الحمّام، قلت لصاحب المنزل وهو يناولني المفتاح:

- هل أطمع في دوش ساخن الآن؟

- آسف لا نفتح الدوش الساخن إلا في الخامسة صباحاً.

من لي باليقظة في السابعة، فبالأحرى في الخامسة.

- هل أطمع ؟...

- في هذه الحالة عليك بفندق رجينا..

قاطعني ضاحكاً، ولم أغضب، فأردف باسماً:

- هو أيضاً من عهد الإسبان، ولكنه أحسن.

قلت له مجاملة عساه يفتح لي الدوش:

- ما أجمل عهد الإسبان!

قال: أجل، ما أجمل عهد الإسبان!! ولكن فندق رجينا أجمل..

فهمت ما يعني، ويئست من الدوش الساخن، أردت تغيير الحديث فسألته بدعابة:

- قل لي، ماذا تفعل إذا دهمك مشكل عويص؟

- أركله برجلي..

- وإذا تشبث بك أكثر..

- أشرب الويسكي..

أجابني ضاحكاً، فضحكت أنا الأخرى.

وفي الغد كان الصباح كئيباً للغاية: السحاب مطبق والريح باردة. ولكن. . ما أجمل الكآبة في تطوان! هكذا قلت وأنا أحتفظ في القلب بسري الجديد.. غداً ينهدّ الجدار بيننا ونشعل النار المقدسة على أطلاله المجيدة..

المشهد التاسع

مالت الشمس في طريقها إلى مثواها الأخير، فتراءت كأنها قطعة نار عليلة تتدحرج ببطء متعب نحو الهاوية... كان القلب يدق بإيقاع متواصل عنيف، حين قررت مكاشفة حسام بما أوحت به مارتيل. ما أسهل أن نكون جبناء! وما أشد جبنك أيها القلب! ولم الخوف أيها الأحمق؟ لحظات وتراه جاثياً أمامك، وإن هي إلا كلمة منك ثم ينتهي كل شيء. والتفتُّ إليه ونحن نخطو إلى شارع المكتبة الرسمية المطرز بالأشجار.

- حسام، هل أحدثك في أمر؟

ردّ عليّ ضاحكاً:

- بشرط عدم الوقوع في أخطاء إملائية...

قلت وأنا لم أسمع ما قال:

- لا، لا. . بل في أمر أهم..

- في الخدمة..

واكتسح الانتظار رفقتنا الخالية من الرقيب. كان الشارع الذي نسير فيه قد تردَّى بمعطف مسائي أسمر هادئ. ولم تكن الأضواء الخافتة الصفراء لتنير لنا طريقنا الذي خلا من الناس.

- حسام.. أنا..

تتابعت الثواني ثقيلة فوق الصدر. ويلاه!

- أريد أن أقول: إنني.. أحبك.

ضحك بلا تحفظ.

- ما يضحكك؟...

- اضطرابك الطويل، وقولك الجميل!

- نعم؟....

سألته باستياء، ظناً مني أنه يستهزئ بي..

- هذه حكاية قديمة جداً يا ربا...

تدحرجت بعيداً إلى جوف الزمن، ثم عدت لأقاطعه بأنفاس متلاحقة.

- بل أرجوك افهمني...

توقف بهدوء.

- ماذا تقصدين يا ربا؟..

أجبت وقد نفد صبري:

- أقصد... أقصد...

كان يتأملني بدون أن يبدي أي تعليق، انهزمت أمام نظرات الاستكبار، أصبت بالتهافت الذي تعلّمته في النجمة بين يدي الأصدقاء.

وساد صمت وشرود. ماء بارد غزير يتفصَّدُ من أضلعي. صفعة تهاوت على عقلي حتى أشرفت على الجنون، زلزال ضرب معاقل الدلال

في ذاتي فتركها يباباً.. دارت الأشجار حولي في كل الاتجاهات واشتعل الظلام حتى تحوّل لهيباً..

- لا يصح يا ربا.. نحن أخوان..

ارتطم الإدراك بضراوة مع وضوح الكلمات، ونال الهوان من كبريائي نيلاً أليماً، ولكن تماديت في يأس لاهث كأني أتشبث بآخر خيوط للحياة...

- حسام.. أرجوك.. أنا أحبك..

ولكن انطبقت السماوات على الأرض، انفطرت الفضاءات، وانتشرت الكائنات، وانفجرت البحار والأنهار، وتبعثرت القبور. آه لقد جاء الجواب، تلقيت صفعة حقيقية على وجهي فتهاويت، ولكن يداً صلدة قوية أرجعتني إلى سابق توازني.

- ربا.. توقفي ـ أرجوك ـ عن هذا الهذيان..

لم أصدق ما حدث، كل شيء وقع بسرعة وبلا مقدمات، حسام؟! الإنسان اللقيط يرفضني ؟ يرفض ربا بنت الحاج السعداوي!! مرة أخرى عادت القبور إلى احتواء الأجداث، ثم عادت فتبعثرت من جديد.. صرخت بملء فمي وقد غمرني الهوان ببشاعة حتى ماتت كبريائي اغتيالاً:

- أتهينني يا...

- ربا يجب أن تعقلي، ما تفكرين فيه شيء فوق الخطأ. إنه معصية وجريمة.

في هذه اللحظات الباردة كالموت، رفعت كفي إلى الأعلى - وأنا أتمنى لو كانت فأساً من حديد - وهويت بها على وجهه بكل قواي.

- أنت إنسان حقير، كنت أعتقد أنك في مستوى مشاعري، ولكنك حقير..

ظل مشدوهاً من هول المفاجأة، قال لي بعد زمن كالدهر، بصوت لاهث:

- هل جننت يا ربا؟! أتطلبين منّي أن أخون رباطنا الأخوي؟!!

وصحت به كالوحش، ونبرات صوتي متهدجة بالمذلة:

- ولكنك لست أخي. . لست أخي..

ثم همست في مذلة وانكسار:

- وأنا أحبك أيها اللقيط..

* * *

ولكن حساماً الذي كان قد ابتعد عني، لم يسمع هذه الكلمات. أو لعله تعمّد عدم السماع! آذتني هذه الخواطر الأخيرة كالسم في مشاعري، فحنقت عليه، وكرهته ببشاعة فقدت القدرة على التمييز، وأصيب الصدر بالفوضى، فاختلطت الأحاسيس. واضطرب الفكر وأصبح يلهث كالمجنون. لقد خرجت من هذه التجربة القاحلة مهشمة الكبرياء، ولم أعد أعرف بماذا أمسيت أدين حقاً، أبالحب، أم بالكراهية؟! بيد أن كراهيتي تضخّمت في عيني تضخماً مهولاً، وأحسست أن رئتيّ تريدان الانفجار بصوت مدوٍّ كغضبي، حتى إنني

احتقرته ببشاعة وتمنيت له الموت. ماذا ؟ ولم لا ؟ لماذا لا تموت أيها المستكبر المغرور اللقيط؟! حامت حولي هذه الفكرة كذبابة سامة، فبرقت لها عيناي في الظلام الثقيل: لأنتقمنّ منك.. قسماً باسمي لأنتقمن منك!!!

كانت فكرة الانتقام شيئاً جديداً عليَّ، ولكن لا ضير. . كانت هناك أشياء كثيرة في كياني أصابها التغيير، إنه زمن سلخ الجلد، ثمة أشياء مجهولة لدي كانت تحدث في صدري، فتقوض جسدي لهيباً وظمأ. ساعدتني الطريق المنحدرة على إسراع الخطو نحو بيتنا، في حين لم تستطع نسمات البرد أن تخفف شيئاً من غليان دمي. رغم جيب الصدر الفاغر فاه كالتنين. لم يستطع البرد أن ينال من تفاصيل جسدي المحروق، فكنت وأنا رهينة ذلك العذاب النفسي الفائر أبشر فلول الحقد المتوالدة بسرعة خيالية داخل نفسي: لأنتقمن منك أيها الحقير، هذا قراري الأعز...

ثقل عليّ- وأنا أعبر الممشى الخارجي لمنزلنا - أن أؤخر دقيقة واحدة تنفيذ ذلك الغضب الجاثم على صدري، فتح الباب، ودلفت مسرعة كقاتل أو قتيل، رجّع نشيجي حداء القهر والهوان، كأن القدر قد هيأ لي مسبقاً مسرح الجريمة !! فكل أفراد أسرتي جالسون وهم يشربون الشاي. صامتة، يتعقبني نشيجي مررت بهم إلى الطابق الأعلى. وسمعت صوت أبي يتعقبني بالسؤال، لكنني تجاهلت النداء، قطعت أدراج السلم وكنت أعلم بيقين أنها قادمة ورائي لا محالة، تهيأت للتنفيذ:

وبالفعل، فلم تمض غير برهة من الزمن، حتى انفتح الباب، ودخلت أمي مسرعة نحوي:

- ربا. . ماذا حدث ؟ بالله خبريني!

لم أعر نداءها أي اعتبار من أجل إشعال الفتيل، كنت مغرقة وجهي في الوسادة وأنا منهمكة في البكاء، في هذه اللحظات المشحونة بالتوجس والغدر كان الكل قد حضر إلى الغرفة: أبي الحاج وأمي عزيزة وكريمة أختي وزينب، اقترب مني أبي مستفسراً عن الأمر الذي روعني:

- ربا. . ما لكِ يا ربا؟. . ماذا جرى؟ تكلمي..

اقترب مني أكثر والتفتُّ إليه، حانت ساعة الانتقام وأزفت لحظة الدم. عانقته وصوتي يتدحرج في فمي بانكسار:

- حسام يا أبي. .. حسام...

- ما له حسام؟!

تساءلت أمي بفزع. وبادرني أبي وقد ازداد اهتمامه، ونفد صبره:

- ما الأمر يا ربا؟ لقد نفد صبري..

وأطلقت رصاصتي وأنا أنفث فيها كل ما ادّخرته من كراهية وموت للزاهد العنيد، أمام الجميع أطلقت الرصاصة الملغومة بالبهتان والغدر، خذها أيها اللقيط! وازددت تعلقاً بأبي وأنا أنشج بألم وقهر:

- لا أدري كيف أقول يا أبي. . لقد أراد حسام اغتصابي..

- ماذا ؟ حسام ؟. . أراد اغتصا......

ندّت عن أمي عـزيزة شهقـة عنيفـة عـرفت منها أنني وصلت إلى نقطة اللاعـودة، وطغى الصـمت المخـيف كـأن القـيـامـة على وشك الانفـجـار.. صـمت مـخـيف جـداً إلى حـدود العـذاب، رهـيب جـداً إلى حدود الإرهاب، ولكن أبي شق علينا الغرفة بصوته المزمجر وهو ينادي حساماً. . تردد الصوت كأنه النذير، حدث ذلك مـرات ونحن جامدون في أماكننا كالموتى إلا من بعض التنهدات المنكسرة التي كانت تندُّ عني وأنا أخـفى وجـهي مـرة أخـرى في الوسـادة، وضـربت أمي كـفـاً بكفٍّ، فتراجع الصدى شظايا من القلق والانتظار. . وأخيراً طلع علينا حسام وهو يتفحصنا واحداً واحداً في صمت، ولم يمهله أبي:

- هل صحيح ما سمعته يا حسام؟!

- ماذا سمعت يا أبت؟. ..

وقاطعه أبي بعنف:

- لا تنطقها مرة أخرى... وأجب فوراً على سؤالي.

وأعاد عليه السؤال:

- هل صحيح أنك فعلت هذا؟

أراد حسام أن يشرح موقفه ولكن خانته الكلمات. تأرجحت اللغة بين شـفـتـيـه فـتمنيت أن يصبح أبكم أصم أعـجم حـتى لا يسـتطيع دفاعاً!. وانطلق حسام يشرح بهدوء:

- في الواقع يا عمي، ربا فهمتني خطأ..

وأوقـفـتـه عن ذلك الكلام الهـادئ صـفـعـة هائلة من أبي الحـاج. زغـردت الأعـمـاق، وضـحـكت النفس الجسـورة بجذل الظالمين، تقهقـر حسام إلى الوراء كأن الصاعقة أطبقت عليه.

وصاح به أبي متوعداً:

- أيها اللقيط التافه. هل تصل بك حقارة أصلك إلى هذا المستوى؟..

كان حسام يريد أن يقول شيئاً وكنت أرقص كالحمقاء من الداخل، خذ أيها المتكبر العنيد. أما أبي فقد التفت حواليه كالمسعور، فلم يجد أمامه سوى سراج الضوء الموضوع بجانب السرير. اختطفه بعصبية قاسية. رفعه إلى الأعلى كفأس حديدية في يد حطّاب شديد، وهوى به على رأس حسام... وَلوَلت زينب بشدة، وانكسر السراج على رأس حسام.

بينما رأيت الدم الغزير ينبجس من خلال شعره الأسود الفاحم، صرخ حسام بصوت زاخر بالألم. وزغردت الأعماق بسورة التشفي.. فقد توازنه مرة واحدة فهوى على بساط الحجرة الأزرق. واختلطت التأوهات مع كلمات غامضة. كنت أعلم أنه لم يفهم بعد ما دار في غرفتي قبل وصوله إلى مشنقة الاتهام. اجتاحني شعور رهيب بالتشفي، وداهمتني رغبة بشعة في تعذيبه أكثر. فقلت لأبي وأنا أصطنع الانكسار:

- لا تصدقه يا أبي، فقد كان يسعى إلى اغتصابي منذ أيام..

ماذا تقول أيها الوحش الساكن في باطني؟ دوّت كلماتي الأخيرة كخزّان كبير من الألغام، استفاق حسام على أثرها مصدوماً كمن لدغته أفعى قاتلة. بدا أنه نسي الجرح النازف في رأسه. لقد اختطفه جرح اللسان! ندّت عنه شهقة غائرة وقد جحظت عيناه.

- هل لديك ما تقوله أيها الحيوان الكلب؟

لم يعد حسام يستطيع الكلام، فقد انعقد اللسان على الصدمة كما تنكمش يد ميت على شيء ما. وطفق يردد بصره بيننا كالمجنون، وبذلك أدار حبل التهمة حول عنقه بهذا الصمت العاجز مرة أخرى، صدمه أبي بصفعة قاسية وارتطم رأسه على إثرها على الجدار. تهاوى على الأرض. كان ينظر إليّ بعينين دامعتين وقد رسم الدم القاني خطوطاً مخيفة على خديه.. ثم تحامل على نفسه واقفاً. كان يريد أن يقول شيئاً، ولكن صوت أبي كان أسبق إلى إنهاء المسرحية الزاخرة بالعبث:

- اخرج من هنا أيها اللقيط التافه، اخرج ولا تعد إلى الأبد...

سادت فترة صمت فادحة الثقل قبل أن يتحرك الضحية القتيل، نظر إليّ فسقطت عليّ نظراته كالشهب المنذرة باشتعال الكون، ذاب غضبي، وتلاشى حنقي، وتفتت باطني، وأجبته بنظرات ناطقة بالعصيان. بدا أمامي كتلة متهدمة من الآلام، أحسست أني ارتويت وارتويت وارتويت. وجاء الهمس المعذَّب معلناً إسدال الستار:

- حاضر يا عمي، سأخرج ولن أعود..

وغادر الحجرة. تاركاً إيانا جميعاً غرقى في بحر من المشاعر: كراهية. حب. دهشة. حزن. ألم. وبذور خفية لها طعم يشبه الندم...

* * *

فتحت عينيَّ في إعياء، وقد استيقظت في صباح الغد. أجلت بصري في أنحاء الغرفة بتعب واضح، تخيلتها ميدان معركة ملأى

بالجثث والثكالى.. تخيلت أن كل قطعة أثاث داخلها كائن يبكي شيئاً ضاع.. تحسست أضلعي التي آلمتني عندما تنهدت بصوت مسموع. وعندما تساقطت أنفاسي أشلاء على اللحاف. كان صدري هو أيضاً يؤلمني بشدة. كأنني ما كففت عن الصراخ أو البكاء الليلة كاملة. تذكرت ما حدث بالأمس.

كانت الغرفة صامتة لا حياة فيها إلا من أنفاسي المتساقطة بين الحين والآخر.

أحسست بشعور قوي وغامض يحتل أوسع فضاء في صدري. إحساس رمادي الطعم... هنا في هذا الصدر، وهناك في مكان ما في الرياط، جنازة ما أشد سوادها، تقام لها المراسيم ولما تنته بعد. وراودني حادث الأمس بكل تفاصيله. موقفاً.. موقفاً أمام بصري الكليل كأنه يقول لي بتحد: هذا ما جنت يداك!.. دار رأسي مع أنني لم أقم من سريري، فأغمضت عيني وأنا أتأوه كالمحموم، رغبت عن الخروج من غرفتي. فلبثت الصباح كله حتى دقت الساعة الثانية عشرة.

كنت أحس بشعورين متناقضين، لكنهما غامضان غموض الطيور الهائمة في غسق المساء، شعور كريه بالتشفي، كأبشع شيء في الدنيا. وشعور خفي بالندم والقهر يقطع شراييني وقلبي حتى الموت. ويلاه! ماذا أصابني؟! هل أنا نادمة فعلاً على ما قدمت يداي؟ أم هو التعب قد أخذ مني كل مأخذ؟ وهاجمني فجأة شعور كاسح عنيف بالاستهتار.. ضربت الهواء بقبضتي الرقيقة مستهينة بالزمن وما يليه.

وبنفس القوة داهمني إحساس مجهول لم أتبين ملامحه، فطوقتني رغبة صارخة إلى الضحك بجنون. فرميت نفسي في قبضته كمن يرمي نفسه من بناء شاهق في فوهة بركان مشتعل بالظلام. وضحكت بصورة لم أعهدها من قبل. رنّ صوتي في أرجاء الغرفة فقلدتني الأشياء، لكن بطريقة مخيفة كأنها تتهمني بأفظع سقطة سقطها إنسان بعد سقوط الشيطان. ثم لم أجد شيئاً آخر غير البكاء فبكيت بصمت، تخيلت أن نفس الأشياء التي ضحكت مني أو معي قبل قليل، تبكي الآن عليَّ أو معي..

زارتني زينب قصد الاطمئنان عليَّ، أحسست بها فتأوهت بحرقة، كانت وهي ترتب الغرفة تسترق النظر إليّ، فحسبت أنها تعلم الغيب، لم أطق ذلك فأردت صرفها بعنف شديد ولكن قواي خارت. فانبجس أنين محطم من صدري وأنكرته إنكاراً قاسياً كأنني أنا القدر ساعة الحكم على الجاني، أوّاه من غياب الحقيقة ووضوحها في أعماقي!.. وفي غياهب هذا الألم المبرح. طاوعت مداراة العذاب في كياني، فغمغمت: لقد فعلت ذلك دفاعاً عن كرامتي! والتفتُّ إلى زينب:

- كم الساعة الآن يا زينب؟

- لقد دقت الواحدة منذ لحظات يا للاّ.

وغمغمت:

- الواحدة..!

كانت تريد أن تسأل عن شيء، فأجابتها دموعي بصمت. قمت من سريري، وأنا أتساءل:

- من في الأسفل؟

- الكل خرج يا للاّ..

لذت بالصمت وأنا أتوجه بخطوات بطيئة نحو الباب.

- لقد ذهبوا إلى المحمدية..

- لا بأس. .

استدركت وأنا أنزل أدراج السلم:

- ألم يخبروك عن سبب الذهاب.

- لا يا للاّ. ولكن قد يكون الحاج راغباً في شيء من الراحة..

سألت نفسي عن هذا الشيء الذي يسمى راحة. لا بأس، إنها المفقود الجديد..

تطلّعت إلى كل أرجاء منزلنا الواسع. بهذا حدثتني نفسي والصمت يبسط خيامه على المكان. شعرت أن عيني خلقتا من جديد: عينان غلّفتا بالجفاف. وشخصت أمامي الأشياء بألوان لم أعهدها. أشكال جنائزية مرة تطالعني بسيماء الشفقة ولون المآتم. داريت دموعي بالجلوس في الصالون. هو ذا مجلس الأمس...

- هل أحضر لك الفطور يا للاّ؟

وخرجت من تفاصيل نفسي:

- لا، أشكرك يا زينب.

ووجدت نفسي أسألها:

- في أي يوم نحن؟

- اليوم؟ إنه السبت.

السبت. يوم الخروج على العادة. إنه يوم جديد لعهد جديد. وأما الأمس فهو جدول الأحزان. أوّاه من هذه المعاني المتوحشة! ماذا اعتراك يا ربا؟ هل جننت وقضي الأمر؟ وقفزت من حلقي ضحكة وأنا أضغط بيدي على خدي البارد كي تتراجع الدموع إلى الوراء.

- لقد سأل عنك جلال في التليفون.

وخرجت مرة أخرى من تفاصيل نفسي المهشمة:

- من؟

- جلال يا للاّ.

وسألتها وأنا أرنو إليها بعيني المحمرتين:

- ألم يقل شيئاً..

- أراد مقابلتك، فقلت له إنك نائمة، فطلب مني إبلاغك تحيات الأصدقاء. وهم ينتظرونك اليوم مساء في النادي. قال إنها حفلة.

تذكرت أنني غبت عنهم ما يربو على الشهرين.

- آه، متى قلت؟

- اليوم مساء..

وصرفتها بهدوء فلم تذهب إلا حينما أكّدت لها أنني بخير.. وخاطبني الصمت بلغة وجدت نفسي أفهمها فجأة وبدون مقدمات، فآثرت الخروج إلى العالم كي أنسى. بنفس الفجأة اعترتني حالة غريبة من الاستهتار بصورة فاحشة شيطانية، فكرت في حفل المساء

فشكرت من أعماقي صديقنا اليهودي. بالتأكيد فهو صاحب الوحي والفكرة. على ذلك المرفأ الهش وقفت ورسيت، قمت من مكاني متجهة نحو الباب الخارجي، ولفت انتباهي - عرضاً - هيئتي المهملة على جسد المرآة الواقف بحائط الممر. أوّاه! لا يزال جيب الصدر فاغراً مشرعاً كأنه فم جائع...

* * *

جرجرني أيها الاستهتار القتّال!.. أوقد في أرجاء نفسي المظلمة مشاعل الزيغ فما عاد شيء يذكرني بعوالم الحشمة والحياء.. اطرد من ذاتي الإحساس بالغدر، وأقنعني بأن اليوم هو الحياة. قلت له كل هذه الأماني البائسة وأنا أضع رجلي على عتبة البوابة الكبيرة للنجمة. طلعتُ عليهم، فاستقبلتني الهتافات والتعليقات، كان جلال يتأملني بإعجاب. لعل اجتراء الكبائر يضفي على الوجه جاذبية الساحرات! وقالت أروى- وهي تتأملني أيضاً- بنبرة من رأى شيئاً جديداً:

- ليحضر الآن ليوناردو دافنشي!.

- بل ليحضر برناردشو..

- بل ليحضروا جميعاً.

ضحك الجميع بعنف إلا أنا، ضحكت بصورة أعنف، أبدى الجميع احتجاجه على الغيبة الطويلة.

أوقفنا عن استرسالنا صوت الزعيم. كانت حرارة الاستقبال واضحة للغاية.

- الآنسة ربا؟! شيء لا يصدق.. لا يصدق..

- لقد صدّقنا وانتهى الأمر يا مسيو روبرتو..

قالها جلال، وضحكنا كالغربان:

- أشرقت الأنوار وغردت الأطيار بمقدمك يا ربا..

عقب الزعيم على ضحكنا الصاخب.

- شكراً يا مسيو روبرتو..

- لا.. يا ربا.. إلا هذا !! الشكر كما علمت ممنوع...

أجابني وهو يعانقني بدون أن أشجعه على ذلك، تخيلت أن حساماً القتيل هو الذي يفعل ذلك، ولكن رائحة التبغ الخانقة أعادتني إلى الحاضر، فاجأني كالمتّهِم:

- لعلكِ تفكرين في الهجران..

- أبداً.. أبداً يا مسيو روبرتو..

- عظيم يا ربا.. عظيم..

خفَّت نوبة الضحك كما تخف نوبة الصرع عن مصاب بائس، ومرة أخرى فاجأني إلياس:

- في هذه المرة. كان الأحسن أن يحضر معك حسام!

انهار جدار سروري على شفتي. كان متشققاً سلفاً وا أسفاه! هوى القلب إلى الأسفل. ولكني داريت هذه الصدمة بضحك صاخب قوي لا مبرر له. أجبت:

- اطمئن. إنه لن يأتي..

- لماذا ؟ هل هو مشغول في دراسة الحفريات القديمة؟!..

اهتزت القاعة على التعليق. وكنت أريد أن أقول شيئاً ما، ولكن الحروف والكلمات سبقتني إلى التعبير كسمكة هاربة:

- لا. بل لقد مات..

وأمرت دموعي الفائرة بالعودة إلى الهوة السحيقة من الذات. حين انشغل الجميع بهذه النكتة الظريفة!!

- فلنشرب جميعاً لموت حسام..

قالها إلياس، وقدم إليَّ المسيو روبرتو كأساً من البيرة، أمسكته بين راحتي في نشوة مجنونة ثم ألقيت به في جوفي كأن ربا عطشانة خارجة لتوها من صحراء مخيفة حارقة.

هتفت الأصوات لربا، قدِّم لي كأساً آخر فأفرغته في جوفي بلا رحمة وشفقة، خذ يا قلبي ولا تبالِ.

وهتفت الأصوات مرة أخرى، أحسست بعد لحظات أنني أغرق شيئاً فشيئاً في شعور لذيذ حسبته الجحيم، وأمسكت النشوة بتلابيب عقلي، فأرخيت لها القياد، وقال الزعيم بصوته العالي الرفيع:

- أرجوكم أيها الأصدقاء انتبهوا.

استدارت الأعناق واشرأبت الوجوه وكان يقف بجانبي.

- يشرفني أن أتحفكم بحفلة من الفلامينكو.

تعالت أصوات الامتنان. كنت أصيخ إليها السمع، فتغتال النشوة فيَّ كل الهموم.

- أما المفاجأة فهي ربا..

- الراقصة؟!!

هتف جلال وأروى مرة واحدة:

- نعم. هي بعينيها.

* * *

أيها الإدراك! وداعاً حتى ينتهي الحفل، أو تنتهي الحياة، هذه هي الأصوات تدعوني إلى الساحة فهي كأس أخرى يفرغها الأصدقاء في مركز الإحساس. وانبريت إلى وسط القاعة. وصلت إلى مسمعي نغمات الغيثار الحزينة وهي تنساب في الفضاء كفراشات متكسرة الجناح. تكسّر الجسد وسط القاعة مدارياً مطر الأحزان. وبيّنت لي الخمرة أن هذه التوقيعات الغجرية إن هي إلا طقوس جنائزية تقام لموت حسام- وقد صدقت موته- وآمنت ساعتها أن هذه الأنغام الثكلى التي أسبح في أمواجها إن هي -أيضاً- إلا كفّارة على ما أقدمت عليه من ذلك القتل، ندّت عني ضحكة سكرى رنّت لها القاعة الأرجوانية الألوان، ورحت أردد بسخرية: كفارة.. كفارة.. كفارة..

كانت كل تفاصيل الجسد ترقص في هيكل الألحان، الصدر والخصر والبطن، كل الأحاسيس تستسلم بلا حرب أو أدنى مقاومة لسلطان الغواية والهوى. كل الرايات البيضاء رفعت وكل القلاع دكَّت، وكافة خلايا الدفاع أبيدت وانتثرت، فيالها من نصرة أو هزيمة ساحقة على محطات الرقيب! وتناثرت دموعي سخية وأنا لا أزال سادرة في الرقص، انتهت الأغنية بأن قتلت الغجرية حبيبها في مقطوعة الفلامينكو الحزينة.

هكذا.. هكذا، وإلا فلا.. قلت ذلك وسقطت على ركبتي وأنا أمثل النهاية المفجعة.

وحاصرتني التصفيقات من كل الجهات. انطلقت آيات الإعجاب باللغتين الفرنسية والإيطالية، فقمت من الأرض وانحنيت باحترام. ولكن ماذا جرى؟! أنا لا أكاد أحكم جسدي.. لك المجد يا سيدة الخطايا و العصيان!! انحنيت مرة أخرى بامتنان حقيقي، بيد أن الدنيا تدور بي بشدة، أحسست أن دوامة ما أخذتني أسيرة في أحضانها. وأخيراً، سقطت على البلاط المفروش. هناك حيث أظلمت الدنيا في عيني، وغبت تماماً عن الوجود...

لم أدر كم مرَّ من الوقت. بيد أني ساعة فتحت عيني، وجدت نفسي في حجرة مفروشة بعناية. كانت القبور لا تزال تحوم حوالي. استطعت أن أتبين وجه الزعيم على هالة من الضوء الأخضر الخافت. وهمست في إعياء:

- أين أنا؟..

- في النادي يا عزيزتي..

غبت ثانية في الدوامة. وأنا أتذكر أفراد أسرتي.

- كم الساعة الآن؟

- الحادية عشرة مساء..

حاولت النهوض. ولكنه منعني من ذلك قائلاً برقة:

- ارتاحي قليلاً..

- أريد الذهاب يا مسيو روبرتو..

قلت بصوت كليل..

- أنت لا تزالين متعبة.

- أسرتي ستسأل عني.. إني خائفة..

وبذلت جهداً كبيراً حتى وقفت. وأسرع لمساعدتي.

- أين الحمّام؟..

- هناك..

قادني برقة إلى جهة الغرب، كان يحيط خصري بذراعه اليسرى. قلت في نفسي إنه يساعدني! ولكن، هل أنا في قبضة الخيال؟ هي ذي كفه المرتعشة تتسلل إلى صدري.

وتوقفت عن المسير. حاولت أن أنزع يده اليسرى التي طوقت خصري. ولكني لم أستطع.

التفتُّ إليه فإذا هو قد تغير وجهه. وتهدلت شفتاه. وغارت عيناه.

- مسيو روبرتو...!

وازداد التصاقه بي. ثم اقتربت أنفاسه من شفتي، كانت رائحته كريهة للغاية وبفضلها أفقت من إعيائي.

- ابتعد عني يا... وجذبني إليه بعنف:

- ربا.. تعالي اليَّ

وأخيراً أحطت بالخطر المحدق بي، فدفعته حتى تقهقر إلى الوراء.

- تعالي..

وهجم كالتنين يريد أكلي. تنحيت قليلاً فكاد يسقط، عرفت أنه سكران، وقررت الدفاع عن نفسي وقد خرجت من شرنقة السكر، خاطبته بتهديد:

- اتركني يا مسيو روبرتو..

- أنتِ لي هذه الليلة...

قالها بصوت مبحوح..

- مسيو روبرتو.. لا تكن نذلاً.. أرجوك..

ولكنه هوى بجسده الثمل عليّ وصاح كالمهووس:

- تعالي أيتها المجنونة..

هنا كنت أسرع منه، حين قفزت إلى قنينة خمر كانت موضوعة بجانب السرير. اقترب مني بخطوات جائعة فهويت بتلك القنينة على جمجمته الغليظة. تقهقر إلى اليسار، ثم سقط يئن.. قلت في نفسي لقد شججت رأسه، إلا أنه كان يتأوه بشدة. لا أدري كيف حضرت إلى خيالي ساعتها صورة حسام وهو يئن تحت ضربة السراج، واتجهت هاربة إلى الخارج وأنا أبكي من شدة القهر. لم أشعر إلا وأنا أجري في عرض الشارع بأكدال السفلى، وكان نسيم بارد يهب من أعماق الفضاء المظلم.

* * *

يا ويل قدميّ أين تسيران بي؟ وأين يتجه الوجدان؟ ازداد تيقظي فتابعت خطاي مسرعة وأنا ألتفت يمنة ويسرة كالحمقاء. كنت ألتفت

إلى الوراء لاهثة فأرى القاعة الأرجوانية والأصدقاء وكؤوس البيرة ورقصة الفلامينكو ومعركتي مع الحيوان الأعجم، أرى كل ذلك يتعقبني بإصرار ويريد اللحاق بي. فيزداد لهاثي وإسراعي.. يا ويل رأسي!!

كان يرتطم بقساوة مع طوفان الأسئلة.. سؤال وسؤال وآخر ثم أسئلة..

أين ذهب الأصدقاء؟ لم تركوني وحدي؟ وماذا حدث لي حين سقطت؟ ولماذا ذهبت أروى؟ ولماذا قتلتُ حساماً؟ ولم حاول الحيوان الأعجم اغتصابي؟ ولم رفضت ؟ ولم عرضت نفسي على الزاهد. وكيف رفض هو وتهافت الزعيم المنافق؟ ولماذا؟.. وكيف؟ وأين؟ ومتى؟ و.. و.. و..

أحسست ساعتها بالخذلان، احترق الفؤاد فمزّقت جيب صدري، لعلي أتخلص من العذاب! لعل جريمة ما اقترفتها فهي الآن تريد الحساب! عادت الذاكرة إلى الوراء. تقدمت إلى الأمام، تعالت ثم تهاوت فكانت كالهشيم. لعنت الأصدقاء جميعاً وتمنيت لهم الموت. الدم يغلي في العروق. الأوغاد. الأوغاد. الأوغاد...

وعدت من هذياني؟ والتفتُّ حولي، فإذا صومعة حسان تطالعني بجسدها العظيم الضارب في غبش السواد. كنت أهذي بتعابير لا معنى لها، أو لعلها تحمل بفوضى كل المعاني، هلوست كثيراً فخفت على نفسي من الضياع. سرت في شارع ضيق مطرز الحواشي بالأشجار. انعرجت قليلاً إلى اليمين فلاح لي عن قرب بيتُنا غارقاً في

السكون، تذكّرت أخيراً أبي وأمي وأختي، زاحمني في الذكرى شخص القتيل الزاهد الحبيب، وفتحت زينب في وجهي ولم أعرف متى طرقت الباب، طالعني وجهها وقد كساه الهلع والخوف، وتقدمت بلا وجل وأنا أبادرها بصوت مبحوح:

- أما يزال أبي مستيقظاً؟

-لم يأتوا بعد يا للاّ..

تقدمت نحو الدرج متجهة إلى الطابق الأعلى حيث حجرتي.. لا أريد عشاءً ولا حمّاماً ولا أسئلة.. أريد فقط أن أنام، عودي إلى الأسفل يا زينب فلا أريد شيئاً.

وقفت أمام حجرتي. ولكن لفت انتباهي الممرُّ المؤدي إلى هناك! جذبتني قوى خفية فلبيت النداء. دخلت إلى الحجرة الصامتة. أضأت الأنوار. تراءى لي حسام في كل الجهات في الكتب واللوحات المكتوبة والسرير والمحراب!! ترددت في سمعي الدعوات. اللهم اغفر لأمي عزيزة واهدِ أختيّ ربا وكريمة. جلست على الأرض القرفصاء. قلت للنوم تعال. جاءني صوت غريب: عليكِ بالأرق فهو ملاذ الخاطئين. أجابت دموعي: لبيك. لبيك. لبيك.

المشهد العاشر

هو ذا خريف سنة أخرى يجمع أشياءه ويرحل. وها هو ذا الشتاء يأتي إلى حَوْبة الحاضر ومعه أشياؤه المتعددة: المطر والريح والبرد والإعصار. وقد قضيتُ الشهور في فراغ مهول اجتاح دنياي طفرة واحدة. اعتزلتُ كل ما يربطني بأصدقائي الأوغاد: النجمة ولافونتين والزهوة. ما أكبر نقمتي على أولئك الرفاق الذين خذلوني وقد وقعتُ بين مخالب الحيوان الأعجم!

أحسست أن الزمن يتوقف تماماً ويقدم لي ما يشاء من ملل كريم العطاء. ماذا يبقى الآن من الحياة؟ بل ما معنى الحياة نفسها بهذه الوتيرة الأليمة بتكرارها كدقات السياط؟! أهناك طريق أخرى لإحيائها؟!...

وعشتُ - والوحدة تأخذ بتلابيب نفسي - ساعات طويلة في غرفتي لا أبرحها إلا إلى مائدة الطعام، كنت خلال هذه الساعات الظالمة أحس بالاختناق، أدركت أن شيئاً ما قد انهدم في نفسي.. وإلاَّ، ما يفسِّرُ إقبالي الشديد على اعتزال المخلوقات؟! ووجدت نفسي أبحث عن حل لحياتي. ما دامت الوحدة قد أدمت كياني كله. كان يزيد من عذابي أن ذكرى حسام ماثلة أبداً بين عيني. يا لك من هارب جبان أيها الإحساس الغامض! ما لك تتسلّلُ بعيداً من صدري كأنني ما كرهته في يوم من الأيام؟! ويلاه! هل جريمة ما اكتسبت؟ وقال الندم كلمته الأخيرة. فقادني الإحساس الفادح بالمصيبة إلى التفكير فيه باستمرار.

أيّان يحيا الآن في هذه الساعات الكئيبة المتوّجة بما لا يشاء قلبك من عناكب الندم؟؟

قال لي الفراغ الشامت بي: إن القدر سينتقم مني، فضحكت مندهشة - وخائفة أيضاً- إذ طرقت فكرة القدر أبواب عقلي. فلم أفكر فيها قبل اليوم. أحسست أمام هذه القوة الطارئة والمجهولة بالعجز التام. أيها القدر الذي لم أعرفه قط. اغفر لي!!

* * *

لم يكن سهلاً على ربا أن تفكر في الاستغفار. هذا ما قلته في نفسي حين فكّرتُ بالفعل أن أبحث عن حسام. مالك أيتها الحمقاء؟ يجب أن تعرفي ماذا تريدين منه بالضبط.

أترغبين حقاً في المغفرة؟ أم هو ذاك الحب الممسوخ يتوارى وراء أطياف الفضيلة والتوبة؟

إذ ماذا يفيد الاعتراف بعد ما حدث ما حدث؟ هل من المعقول أن يغفر حسام بعد كل الذي فعلته به؟!!

لقد تَصوَّرت أن تغيير نظام الأشياء وقَلب الفصول أهون عليَّ من إقناع حسام بالصفح، فما أصابه بسببي أفظع مما يحتمله إنسان رقيق مثله. وأيضاً نظيف مثله. فلحظة الانتقام البشع لا يمكن أن تنسى. البهتان والإهانة والصفع والدم الفائر من الرأس. كلها أشياء لا تُنسى. كما أن لعنة النجمة لا يمكن أن تُنسى، البيرةُ ورقصةُ الفلامينكو ورغبةُ الحيوان وصدمةُ الخذلان، كلها أشياء لا تُنسى. تمنيت لو أنتقم لنفسي بقدر أمنيات الغفران.. انتقاماً يشفي ما في

صـدري من اندهاش سـاحق من تهـاوي الزخـرف وهـروب الزيـف عن سحنة الزعيم. يهودي من إيطاليا، عادت إليّ هذه الكلمات بلا مناسبة وربما هذا أوانها.

سؤال واحـد عنيـد يـلاحقني كمـا يـلاحق الموت الخـلايا الهـرمة. اندفاع نحو الزاهد المتعالي، وهـروب من رغبة الكهل المنافق، ما الفرق بينهمـا ومـا السـر؟ هذا سؤال يستقر الآن على مناكب الوعي، رُبّما قبْل أن أحـصل علـى جـواب أفـقـد في المقـابل أغلى الأشـيـاء. تصـوّرتُ أن الأرصـفـة والحـجـارة والأشـجـار وفـضـاء البـيت كل أولئك يطـالبـونني بالجـواب. لأبحـثـن عن الجـواب. اليـوم أو السـاعـة أو غـداً. ولـكن لم البـحث؟ ها هـي ذي أنا أتسلّلُ بلا داع إلـى حجـرة الراحل التـي أمسـت اليوم عالماً مهجوراً. أتأمل ما فيها من عوالم وأشياء، وشعور المصالحة يربط بيني وبينهـا بميـثـاق حـمـيـم حـزين، كنت كلمـا تسلّلتُ إلى هذا المكان، أقف طويلاً عند تفاصيل لم تكن تسـترعي انتـبـاهي من قـبل. هنـا كـان يجلس. وهـنـا يقـرأ أو يكتب. وهنا كـان يصلـي ويدعـو لنا بالهداية والمغفرة. ما الهداية وما الضلال؟! أما عن المغفرة فها هي ذي اللوحـة القـديمة تطالعني ئهاالكبيـر ر وأنـا أشـهـد مجـد الضيـاع ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا..﴾ أخـذتْني الكلمـات والتقطَتْ أنفاسي فلم أستطع لها دفعـاً، تابعت القراءة بـرغبة أكبـر ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ العفو والمغفرة والرحمة والنصرة. هـذا ما يبغيه الإنسان المخذول مثلي ولكن كيف الخروج مني إليـه؟ وكيف الخلاص؟ ها هنا روح مفعمة

بالأمان فأين المصدر؟ أرى وأسمع وأحس فكيف لا أفقه تفسير ما أرى وما أحس به وأسمع؟ من أين يمتَدُّ إليّ هذا الحضن الرحيم المختفي؟ إنه يدعوني إلى الاسترخاء بين يديه. إنه يمسح عن نفسي المتعبة وإرادتي المرهقة غبار الألم وتجاعيد الملل...

في المُصلَّى جَلَسْت. هويْتُ بكينونتي إلى الأرض وأنا أنغمرُ بإحساس دافق من دفء الحقيقة، واكبداه! أية حقيقة هذه التي أنغمر في شعاعها. تساءلتُ وبكيتُ بدون أن أدرك سبباً واضحاً لبكائي سوى الرغبة الجامحة. أحسست بضعفي، وبحتُ للصمت بكل آلامي. وأمام ذلك الشعور الدافق الرحيم عرّيْتُ نفسي حتى لم يبق شيء في عداد الأسرار فأصبح ساعتئذ أقرب إليّ من نفسي. هويتُ كرة أخرى على السجاد ولا معنى عندي للسجود سوى الرغبة العطشى إلى مزيد من الأمان. وفعلاً إنها لحظات تولد فيها تلك الأشياء الحبيبة، الرائعة، المبشِّرة بشآبيب السكينة الغامرة والراحة المفتقدة والحنان الدفَّاق. همست أخيراً بلغة متلعثمة كلغة الأطفال: أيها المجهول الأقرب: اغفر لي...

* * *

لاحظت أمي كثرة سُهومي وذبول حياتي فخافتْ عليّ، وفي المساء - وقد جالستُ أسرتي على مائدة العشاء - بادرتني في إشفاق:

- ما لك ياربا؟..

فاجأني السؤال. إذ هو نفس الهاجس الذي كنت أطرحه على نفسي..

- أنا؟ لا شيء.. لا شيء..

- ولكنك لست طبيعية..

بادرني أبي وهو يضع كأس الشاي من يده.

- صدِّقوني يا أبي.. ليست لدي أية مشكلة..

وكنت أكذب بالطبع. لأن مشكلتي كانت أكبر من الخفاء. إنها كانت ماثلة بعنف في كل تفاصيل وجهي. في ذبول عيني. وانهيار ابتساماتي، وتصدع نظراتي، لقد كان كل ما حولي يواجهني بالخذلان... وقال المذيع وهو يطالعني بوجهه الجامد: إن ما حققته الدول العربية في حرب أكتوبر كان نصراً مؤزراً. قد يكون برنامجاً أو شيئاً ما. كنت في الحقيقة خارجة عن دائرة الزمن، قلت في نفسي لعل الزعيم واحد من الأعداء. على الأقل بالنسبة إليّ. وجدتها فرصة كي أبدد الحصار المحيط حول عنقي.

- هل هناك عداوة بين العرب واليهود؟..

ضحك أبي. ربما من غيابي عن الزمن.

- أوه. عداوة قديمة..

- وما شأننا نحن؟..

قلتها بقلق، وعندي شعور غامض يدعوني إلى المزيد. وقال أبي بعد صمت:

- لنا، وليس لنا..

- لم أفهم يا أبي..

وتأملني مبتسماً وكأنه لا يُصدق ما يرى. أجل كل الأشياء تتغير حتى الحجارة:

- دعيك من الفهم..

- ولكن...

- ولكنك غير مرتاحة..

- ولكني أريد أن أفهم..

- أوف، حتى ابنتكَ تُريدُ إصابتها بهذه التُرّهَات؟

قاطعته أمي عزيزة بتأفف.. ضحك أبي عالياً ثم أمّن على قولها، ولما يتخلص من سلطان الضحك:

- صدقت. إنها مجرد ترهات..

- ولم هي ترهات يا أبي، ألا يجوز أن..

ضحك أبي مرة أخرى، ثم أجابني بلهجة ليست كالأولى:

- الحق أننا لا نملك سوى الدعاء للشعب الفلسطيني..

- الدعاء!!

- أجل. ذلك ما لدينا..

لقد بدأت أقتحم دنيا لا قبل لي بها. تدفعني إليها أيدٍ مجهولة لكنها عاشقة للعناد. ها هنا تشعر أنك تريد أن تحطم أو تتجاوز الذات من أجل التمرد، أنت مُعفىً من الوجل والتردد. ولكن تسكنك المغامرة النبيلة، والإرادة المحتملة للبدء ضد السهولة، وضد شيء ربما يكون هو الانهيار أو التراجع، أو حتى الدعاء الذي لاذ به أبي.

- ها أنت ذي تعودين مرة أخرى إلى السهوم.

- لا. أنا هنا معكم يا أمي..

ولكنني لم أكن معهم. بل لم أكن مع نفسي. لقد بدأت البحث عن جزء ضائع من وجودي.

وها هي ذي النتيجة: سلطة ومقاومة، قلق ولذة ومعاناة. غموض وعذاب فإلى أين الملاذ؟ ازداد عطشي إلى المزيد عسى ذلك ينسيني أو يخلصني من حساب الذكريات! ولكن هيهات.. هيهات أن أنسى الملاك أو وجه الشيطان! ألا ما أقسى طعم التحولات. ولكن ما أروعه. وقالت أمي: إنك تعتزلين الحياة. فقلت: بل لعلي أتعلم كيف يكون العناق!!

تخلَّيت سراً عن شعبتي الأولى - وقد كنت في الأدب الفرنسي - التحقتُ بكلية الحقوق لأجد نفسي بين نماذج إنسانية تختلف عمّا رأيته. بيد أن جوع الأعماق دعاني بلا رحمة إلى ارتياد باقي الشعب: الفلسفة والأدب والدراسات الإسلامية فعانقت نفسي عوالم الفكر، ومراتع للعرفان أزاحت عن روحي بعض القشور المترهلة.

أنعم بالحياة يوم تلبسها الإرادة الحرة! لقد وجدت نفسي هناك ولكن الكيان كان غائباً عن البصيرة بسبب غياب الوضوح عن الطريق. أحب شيئاً ولكني لا أعرفه. أحس بأن تغييراً وشيكاً سيحدث في حياتي. ولكن ما لون هذا التغيير؟ هكذا سكنتني هواجس وقلق دفين من المجهول الذي أتقدم إليه - أو يتقدم إلي بلا هوادة حتى احترتُ بين ظنوني. هل حياتي الباقية سائرة إلى الجنة أم منقادة إلى

الجحيم؟!.. هل تقود كافة الأخطاء البشرية إلى التغيير؟ لقد آمنت أن الخطأ وحده لا يخلق بيادر التغيير في الإنسان، بل يبقى الخطأ كياناً ميّتاً حتى تتنزّل عليه أمطار الإحساس والوعي. وحتى تتم مرافقة أطياف القلق التي تبارك هذا الإحساس. لقد بدا هذا القلق الدفين على كل تصرفاتي. وأدرك أفراد البيت جميعهم أن رُبا يجتاحها إعصار كبير لكن واكبداه! وأسفاه! الكل كان يرجع ذلك إلى الحادثة التي أطاحت بوجود الحبيب في ذلك البيت. أما أبي فقد كان يوجه أصابع الاتهام إلى أمي. لا أدري ما الحكمة في ذلك. فتتساقط نظراتها على الأرض كأجنة مجهضة بالإجبار. ترى ماذا تحملين أنت الأخرى أيتها الأم التي لم تعرف حياتها الأحزان؟ آه من العذاب الأبدي! لن يهدأ أوار هذا العذاب المُضْني إلاّ بإلقاء السر إلى الخارج. والتطهر بماء البوح أمام الجميع. وأمامك أيها المجهول الذي يستوي على عرش الروح..

فكرت في الاستغفار. ولكن ماذا يحدث لي؟ ومن هو هذا الصوت الآتي من الباطن ولمن هو؟ إنه ينطلق فائراً من طبقات نفسي السفلى في سخونة قتّالة قاسية. إيه يا ربا! فيم تفكرين أيتها الحمقاء الحالمة التعسة؟! نظرة واحدة إلى حياتك كافية لكي يصيبك الخجل مما تفكرين فيه. انظري إلى قسمات الماضي يا ربا! لكي تعرفي من أنت، ومن حسام. أنت الأرض وحسام هو السماء. أنت الغروب وهو إشراقة الصبح الجميل. أنت يا ربا طريق حفرتها معاول الضعف أمام الرغبة. وحسام جبل رفعته أيدي الترفع الصامت الذي لا حد له. أنت تاريخ

شوهتْ وجهه أظافر الخطايا. وحسام تاريخ كُتِبتْ سطوره بعطر الحياة. هذه أنت. وذاك هو حسام. أفلا تخجلين من مواجهته ذات يوم. أتجرئين؟! ولم لا؟ أريد المغفرة.. أريد المغفرة! ولكن يهتف في الأعماق ذلك الصوت ضاحكاً في سخرية تُحيلُ باطني إلى غابة كثيفة شب فيها حريق مهول. وأتصور أن هذا الحريق المهول لن يخمد إلا بخمود نفسي. وتفتت حشاشتي. تكتسيني الحُرقة فتتهمر شآبيب الدمع. أقول بملء القلب: أيتها الأيائل انطلقي فقد سئمت موتي..

المشهد الحادي عشر

الأضـواء تزغـرد في جنبات البيت إنهـا الليلـة التي تودعنا فيـهـا السنة الذاهبـة كي تركب قطار الزمن. يا لها من مـحطة نتوقف فيهـا من أجل الشـعـور بالبـداية! أمـا بالنسـبـة لي فلتكن مـحطة انتظار للمـجـهـول بكل مـا يحـمله من طرائف وأفـراح أو أحـزان. لحـظة إمـا لتوطين النفس على تغيير الجلد وسلخ الكيان، أو تكون صفحة للتسليم الأبدي لجحافل الضعف كي تفعل ما تشاء.. أما أسرتي فقد أطفأت خمسَ عشرة شمعة احتفالاً بعيد ميلاد كريمة، كانت ترفل في غلالة رجراجة من السعادة وهي تتزيّن بفستانها الأبيض. بدتْ فتاة كاملة التكوين. تأملتها أمي عزيزة في حبور وهي تطفئ الشموع الملونة. كانت سعيدة بجمالها الريّان. من أجل ذلك اقتربتْ منها بسعادة بادية على بحيرة عينيها.

– لقد أصبحتِ فتاة في سن الزواج يا كريمة.

– المهم. أن يكون العريس في مستوى أبيها..

ضحك أفراد الأسرة. وشاركتهم بابتسامة أودعتُ فيها كل ما وفّرتُه من إخلاص. القلب منطفئ الأنوار من الأتراح ولكن لا ضير. فلتمارسْ يا قلبي لعبة الانشطار بين السواد والبياض بين برودة العزلة ودفء المشاركة. كنت في هذه اللحظات أرنو إلى أختي كريمة بهدوء. كل ما فيها وما عليها يومض بالرضا والسعادة. وأما الباطن فعساه يوافق الظاهر البراق. التفتتْ كريمه حولها ثم استقرت عيناها عليَّ

تقدمت نحوي بحنان، وجذبتني من يدي إلى جانب الحلوى. أدركتُ أنها التفتتْ لتبحث عني، وخاطبتِ الحاضرين وهي ترنو إلي بمودة:

- ربا أختي هي التي ستقطع الحلوى مكاني..

وشددتُ على يديها بمحبة وامتنان ثم تقدمتُ إلى كعكة الحلوى الصاعدة في الفضاء كالصومعة.

وضعت السكين المذهبّة على حافة الحلوى فارتفعت التصفيقات الودودة من الجهات الأربع. لتكن يا قلبي - هذه الساعةُ - ساعة الانزياح عن سدة الأحزان. كان في الجانب الأيمن من فناء المنزل الواسع جوقة من الموسيقيين للطرب الغرناطي. فانسابت الألحان في المكان. تسلّلْتُ إلى الحديقة لأظفر بقسط قليل من السكون. الأصدقاء حاضرون جميعهم إلا من أروى وجلال. أما إلياس الجريء فقد أقدم على المجيء بالرغم من غضبي. حتى شمس كانت حاضرة، ولكنها لم ترتكب أي ذنب. ورنوت على الأضواء الباهتة إلى كرمة من مسك الليل المتفتحة بكؤوسها البيضاء. ما أطيب هذا النشر العابق المسكر!

- ضبطتك..!

- كانت الشهور كافية لتقتل كل مقاومة في نفسي. التفتُّ إليها بصوتي المبحوح:

- شمس؟..أهلاً..

- وللناس فيما يعشقون مصائب!! هكذا يقال. أليس كذلك؟!

ابتسمتُ لها بحزن. صمتتْ وقد أدركت سر سهومي. وقالت لي وهي تضع كلتا يديها على كتفي.

- ربا يجب أن تنسي ما حدث..

كان الصمت هو الجواب.

- لصالح صحتك يجب التوقف عن التفكير..

لم أجب. ومن أين للأعماق أن تجيب؟

- ألم تجديه؟..

- كلا بحثت عنه في الحي الجامعي. وسألت عنه بعض المعارف في كلية الطب لكن بلا جدوى..

- إذن يكفي يا ربا. لقد فعلت ما عليك..

آذاني جوابها حتى العظام، فسألتها وكنت أقصد السخرية:

- أتعتقدين ذلك يا شمس؟

- أجل يا عزيزتي. هذا كل ما هو منتظر منك..

- إذن لماذا نحاكم الذين أحرقوا جان دارك؟!

أجبتها بنبرة ساخرة واضحة. ثم التفتُّ مرة أخرى إلى زهور مسك الليل وساد بيننا صمت قصير.

- جان دارك أحرقوها لأنها دافعت عن الحرية.

التفتُّ إليها بعصبية.

- وهو؟! من أجل الغابة؟

- إنه على أية حال عرضك للإهانة..

* * *

- والآن أحب أن تقبلي وساطتي..

نظرت إلى شمس باستغراب من غير أن أنبس بحرف.

- جلال وأروى يرغبان في زيارتك.

فقلت لها بهدوء وأنا أرنو إلى الظلام.

- لا يا شمس. لقد رفضتهما ولا أتراجع..

- أرجوك يا ربا. لقد أحرجاني بوساطتي لهما عندك..

واكتفيت بالصمت للتعبير عن موقفي..

- إنهما بريئان مما حدث..

لا أدري بالتحديد لم ضحكت. ولكني بادرتها بسخرية خالطتها الشفقة:

- أراك يا شمس تبرئين القتلة والجبناء. على السواء..

أجابتني نظراتُها التي لا تنمُّ عن شيء. وقلت لنفسي إن قدرة الإنسان خارقة على تغيير طبائع الأشياء. ولو اقتضى منه ذلك أحياناً أن يتجاهل نور الحقيقة. فيا لك من كائن غريب أيها الإنسان! حتى كذبك له طعم الغرابة! وحتى دفاعك عن الحرية له طعم الاستعباد!

- ألن تقبلي وساطتي يا ربا؟

سألتها وأنا أبحث عن لحظة للاعتبار:

- وأنت يا شمس. هل ترين ضرورة قبولها؟

أجابتني بصوت دافئ:

- إن لم يكن هناك مانع..

هناك يا صديقتي مانع. ومانع. ومانع

- أخبريهما يا شمس بأنني أقبل أن يزوراني متى شاءا..

وعانقتني شمس بامتنان، وسحبت يدي بمودة نحو الداخل..

استَجْبتُ لرغبتها وليس أحب لدي من أن أعرف شمس من جديد. الفتاة الهادئة المحبة للخير!! أين منها هذه الفتاة التي تتشفع للجبناء وتدفع الغيم عن رقبة القتلة؟ ألا ما أقبح الدفاع عنَ الأشرار ولو كنت واحدة من الأشرار!

وتذكرت تقاسيم الأيام الخالية. أيام ديكارت وعهود الصفاء، تذكرت اللقاء الأول الذي رأيت فيه شمس. اقتربت منها ونحن نقضي فترة الاستراحة في ساحة ديكارت. بل كان اليوم عطلة.

- من فضلك. مَنِ المنتصر في هذه المباراة؟

التفتتْ إليّ والابتسامة تسبح على بحيرة عينيها الزرقاوين:

- الفريق الآخر وللأسف.

- شكراً..

وانحشرتُ بين الجموع المتراصّة حول الملعب ذي الأرض الحمراء. كنت ساعتها أتأمل الحماسة البادية على الوجوه والشفاه. الكرة المتنقلة بمهارة بين الأيدي. لوّحت مسرورة لأروى وقد كانت واحدة من اللاعبات. ردّتْ علي بفرح أيضاً وهي تنتقل بين اللاعبات ذوات اللباس الأصفر. ولكن! كانت صورة شمس قد نُقشتْ في خيالي لسبب

غامض لا أذكره اليوم. أحياناً يقتحم عليك شخص ما ذاكرتك ويرشح نفسه ضيفاً بالإجبار. ولذلك لم أبذل جهداً يُذْكر وأنا أحاول استرجاع صورتها من الخيال يوم تقابلنا في مؤسسة لافونتين:

- يبدو لي أنني رأيتك من قبل..

- من الجائز جداً، أين مثلاً؟

ردّتْ عليَّ بمودة واضحة. وكانت تتهيأ للدرس الجديد.

- مازلت أتذكرك. مقابلة الهوند في ثانوية ديكارت..

شجعتني بحركة من رأسها داعية لي إلى الاستمرار:

- كنت واقفة بالقرب من المشرب الصغير و...

- أجل.. أجل وسألتني عن النتيجة...

قاطعتني ضاحكة من الأعماق، واقتربتْ مني وهي تمدُّ يدها إليَّ. ثم أصبحنا أصدقاء..

الصداقة شيء غريب كالأيام أو كضوء الفجر الأول. بداية تتسع في الزمان والمكان بلا مقدمات ولا إذن أو إعلان. ولكنها تُعمِّق مجراها كأقدم الأنهار. وتتجذّر بعروقها بعيداً، كأقدم بنيان. فهل يا ترى ينهار هذا البنيان؟! أجل فما أسهل الهدم، ولكن ما أصعب البناء!!

- رُبا..!

التفتُّ إليها فكانت تقف بجانب كريمة حيث مائدة العشاء، لا أذكر متى تركت مكاني.

– شمس؟ هل أنت ذاهبة؟

– أجل، ذاهبة بدون أن أحظى منك بجلسة..

أجابتني ضاحكة. سرنا معاً في اتجاه الباب. كان الجو مفعماً بالأفراح وأيضاً زاخراً بالذكريات.

ولكنها كلّمتني بمودة، تمنيت، ألا يشوبها كدر:

– ألن نلتقي؟

– بلى سنلتقي كثيراً..

– بلا موعد؟

قلت وأنا أبتسم:

– دعيها للظروف..

– حَسَناً. سأزورك كلما دعاني الشوق..

وتركتني لتركب دراجتها النارية البيضاء، تتبعتها حتى توارت في غبش الظلام، ولم يبق منها غير بقايا ضوء أحمر عالق بمؤخرة دراجتها البيضاء..

المشهد الثاني عشر

لقد تركتْ زينب بيتنا هذا الأسبوع...

لم تكن هذه المرأة مجرد طاهية لطعامنا فقد كانت أمي عزيزة قد تركت لها البيت بما فيه. لذلك فقد كان الأسف كبيراً للغاية. أنا أعرف زينب، وأذكرها منذ عرفت الحياة.... وليس لي الآن من إنسان خدوم غير الأحزان. أقْبِحْ بوجه الوقت بلا عزيز! ووجدتُ نفسي أقول باعتبار العارفين: ذهب الأخيار وبقي الأشرار...

أما أمي فقد أصبحتْ كثيرة الشكوى من الخادمات الجديدات. وكانت في الحقيقة تُعاني من الإحساس بالفارق بين زينب الراحلة والنسوة اللآئي يقطعن أيدي الزمان بما لا يقال.. وهذا بالضبط ما يحدث لنا حين نفقد شيئاً أو كائناً عزيزاً كان يملأ علينا الحياة بمعانٍ كنّا نحبها، أو يقدم لنا أيادي كنا نحتاج إليها، بيد أن الإعادة والتكرار يفقدان الأشياء قيمتها.. وساعة يأتي زمن الفقد، وتختفي من دنيانا تلك الأشياء والمعاني التي يهواها القلب، ساعتها نتطلع إليها والحسرة ملء الفؤاد. ويتضخم فينا إحساس بالندم بحجم الحاجة التي نصطلي في جحيمها. إننا لا نتعلم إلا بعد فوات الأوان، ولكن ما أكبره إحساس الأشواق حين يملأ قلب الإنسان!! قلتُ ذلك وأنا أرنو إلى كبد السماء فأجدها قد تكلّلتْ بشفافية محببة إلى النفس. وزيّنَتْ نفسها بنُتَفٍ بيضاء من السحاب اللطيف.

ما أروعك أيها الفضاء، وما أكرمك! يتّسعُ صدرك للنسور العظيمة، والجوارح الغاشمة، كما يتسع لأسراب الذباب!! أنظرُ الآن إلى الأفق البعيد فأحس أنني أهتف إليه بلوعة. أو قل: إن شيئاً ما في ذلك الأفق البعيد يهتف بي، ويدعوني إليه، كل ذلك يسم حياتي بالألم على ما مضى، وشوق آخر حارق لما سيأتي..

* * *

لقد اتخذتُ قراراً جديداً في حياتي. بدا لي أول لحظة غريباً كل الغرابة، فاستصعبتّه نفسي. وحاولتُ إبعاده عني ولكنني فشلت: سأعوض خادمتنا القديمة. سأعوض زينب إحياءً للذكرى وملأً للفراغ. لشد ما أنا راغبة في تغيير مجرى العمر! هذا المجرى الذي حفر لنفسه أخاديد لا جدوى منها في الصحارى. كل ما أطمع فيه الآن هو السكينة. هذا الرضا الرحيم. هذا الإحساس العزيز اللطيف الذي يجعل للحياة والوجدان حياة وأماناً. هذا الشعور الكريم الذي يضيع منا حين تنهار أمامنا قيمنا القديمة وتتشقق قناعاتنا الذاهبة، فنكفر بها في الساعة التي لا نجد فيها قيماً أخرى نؤسس فيها حاضرنا اليتيم. هو ذاك الإحساس الذي أطمح إليه. هو ذاك..

وقلت لأمي وقد أحطتُ بدهشتها لقراري الجديد.

- وماذا فيها يا أمي؟..

- لم يحدث هذا قط في بيتنا..

علّقت عليَّ وهي تقف بمحاذاة الباب. وأجبتها بامتنان:

- فليحدُث الآن..

كانت تتأملني باندهاش واضح..

- ماذا جرى لك يا ربا؟

هذا سؤال يتردد صداه في عقلي منذ شهور دون أن أعرف له جواباً.

- أودُّ تغيير مجرى حياتي..

ثم استدركتُ:

- ونحن في حاجة إلى خادمة..

وضحكت أمي..

- وتجعلين نفسك خادمة؟!..

وأجبت مدافعةً عن قراري:

- أنا في بيتنا يا أمي..

حاولت أمي عزيزة كسر ما عزمت عليه، لكن لم تنجح في ذلك. لقد أقنعتها برغبتي في تغيير رتابة حياتي. في حين لم تكن - ولا أنا- تعرف فحوى هذا التغيير، لقد كفرتُ بالعمر الذاهب، فلم تكن هواياتي القديمة التي مارستها أو عشتها في السنوات المواضي لتنقذني من القلق الداهم - سراً- خيام ذاتي، أواه! ما أبشع طعم الملل من الأشياء التي نكرهها!

لقد حصلت على بعض السكينة والامتلاء. وأنا أغرق نفسي رغماً عن أمي في أعمال لم أكن أعرفها قط في الماضي، فكّرتُ في هذا

وأنا أتأمل جسد صومعة حسان الممتد في أحشاء السماء. ترى أيقدر الإنسان على الثبات كهذا الجسد الممتد في كبد السماء؟ أيقدر أن يصل إلى مقام حماية الذات كما يحمي هذا البناء الجليل جماعات الحمام السابح حواليه باطمئنان؟ وأنا؟ من يكون حصني؟ من يكون مأواي؟ أسئلةٌ جائعة تضرب رأسي كأنها كائنات مجروحة تدق بأكفها باب المجهول، فأفيق من تجوالي الداخلي. لألقي نظرة أخرى على الصومعة المكللة بالترفع على ما تحتها. ترى أين هو الآن بعد ما أبعدته من بيتنا؟ وهل لا يزال يذكر ما فعلته به ربا التعسة؟ هل غفر لها سقطتها التي جنتها في حقه؟ هكذا أعود إلى البيت في رفقة هواجس أخرى، ولكني أضرب الأوراق الذابلة برجلي، بلا وعي. ماذا تقولين أيتها الحمقاء؟ ماذا تظنين المغفرة؟ وردة مطروحة في الطريق للرائح والغادي؟!

أذكر الآن كلام حسام الزاخر بالاعتبار: حينما ندخل بالفعل في مشروع تغيير حياتنا، نحس بأن عيوناً جديدة رُكبت في أبصارنا، أو بصراً جديداً ركب في عيوننا. وأن الأشياء بدأت تولد أمامنا من جديد، ودخلتُ إلى المطبخ ولما تستيقظ أمي وأختي. أغرقت نفسي في إعداد الإفطار كالعادة بشعور يشبه التشفي أو الانتقام. ماذا يجري هنا في ذاتي؟ هنا في صدري، وفي قلبي ودمي؟ لذة ما تقتحم ذرات وجودي وأنا أعاكس تجاعيد العادة في حياتي. أمسحُها. أشق في نفسي خطوط عادات وأشياء لم تكن تنتسب إلي من قبل. ولكن ويلاه. إن حساماً لا يفارقني. إنه هنا يسكن في الذاكرة والخيال. إن أيادي

كثيرة لا تزال مشيرة إلي منذ شهور طويلة بأصابع الاتهام كأنها البنادق. ويلاه!.. وشققت أصبعي بسكين، بينما كنت تائهة في أطلالها أود ترميمها. آلمني الجرح فاسترحتُ من العذاب الداخلي. ودلفتُ إلى صندوق الأدوية. بعد ما ضمّدتُ جرحي اللذيذ، خرجتُ مرة أخرى وقد تركت طعام الإفطار جاهزاً في المطبخ..

* * *

كانت عندي رغبة قوية في زيارة باب الأحد بعد ما عرفته منذ أيام..

ما أجمل هذا الحي العتيق! كيف غاب عني كل هذه السنين دون أن أعرفه. لقد كنت غائبة في دنياي المصنوعة من زجاج. ولكنها انكسرتِ الآن. ولست نادمة عليها... في هذا الحيِّ تبدو لي الحياة على حقيقتها. أقصد: في بهائها وعذوبتها. ما أروع أن نلتقي مع الحياة ولما تتزين بالمساحيق! لا يكاد يخلو هذا المكان من الناس. يطالعك زقاقه الطويل وهو يرسم هندسته في إعياء وقدم. حين يحتضنك مطلعه المبلط بالإسفلت. تغيب في مهرجان من البشر. نساء ورجال وأطفال ومتسولين من كل الأصناف! ودلفتُ من درب على يمين الشريان الممتد إلى أبعد نقطة تؤدي إلى وادي أبي رقراق. هذا المكان لا يعرف الموت. وها هنا يراودني بِشر وانطلاق..

ما طعم الحياة بالنسبة إلى هؤلاء؟ إنهم بلا شك سعداء. بلا شك... ولكن، كيف هي السعادة بالنسبة إليهم؟ ولما لم أجد جواباً غصت في جموع الناس كي لا يخذلني الابتهاج، وأسرفت في المسير

وأنا أتملى بالبضائع والباعة أمامي. امتلأت أذناي بأصوات الباعة والمتسولين. وخيّل إليّ أنني في حفل كبير أقيم على وجه المصادفة! ولم لا؟ هؤلاء الناس يحتفلون بالحياة على طريقتهم. وطالعني سوق الأحذية وقد تجاوزت المسجد العتيق بصومعته التي تبدو منهمكة في حوار السنين. وحين وصلتُ إلى قاع الشريان. امتلأتْ أذناي وأنفي برائحة الفحم المحروق، عدتُّ وقد أفعمني السرور. لقد أحسست بالاكتفاء إذ رأيت الحياة ترفل في ثياب الصدق. هكذا بدتْ لي وأنا أتجه صوب أحد الدروب المؤدية إلى شارع محمد الخامس.. ولكن!!!

ماذا أرى؟ لا أصدق بصري.. حسام؟!!

رباه! هل أنا في حلم أم يقظة؟ إنه هو بعينه وهدوئه الجليل. هو لا غيره، يقف بجانب الطريق وقد امتلأت يداه بالثياب، لم يكن قد رآني فتراجعتُ كالمجنونة إلى الوراء وقد امتقع لوني، وغاص قلبي، وهربتِ الحياة من بصري وكياني! أحسست أن دقات القلب المتعب تنتفض في ضلوعي كأنها ذبيح يصارع النزع الأخير. رباه أدركني! فربما أكون على حافة الجنون. وتراجعتُ دون أن ألحظ نظرات الناس المستغربة، مسحتُ عيني لأنني فعلاً لم أصدق. تواريتُ وراء رجل أعمى يبيع الكتب واقفاً.. هو حسام حقيقة لا خيالاً... وتأملته مخلوعة النفس وأنا أحاول الثبات ما أمكن. حتى الجوارح خوانة فلا تمنحني ثقتك لأحد! كدت أهوي على الأرض. حققتُ وفكّرتُ، وأبصرتُ، ورنوتُ، ورأيتُ، وتأكدتُ. حسام يبيع الثياب ككل الهاربين في الزقاق من رحمة الحراس...

لا أدري لماذا جفلتُ؟ وجريتُ بعيداً كالمجنونة نحو الشارع جريتُ وقد طار الحذاء من قدمي ولفتُّ انتباه الناس. جريتُ، لا أصدق، جريت أكثر.. حسام؟! مستحيل! جريتُ بعنف وأنا لا أعرف هل أهرب منه أم إليه. لم أتوقف إلا حين طالعتني صومعة حسان ببنائها الشاهق المتين، فارتميت على الأرض وأنا ألتقط أنفاسي المرتاعة المتأرجحة على شفتي اليابستين، كأني ألتقط روحي أو بقاياها.. قادني الإعياء الشديد إلى الاستلقاء على الأرض المبلطه بالحجارة والإسمنت تهتُ بلا هدف في ألياف خيالي...

الوقت يطحنُ نفسه كأنه المسعور. ولكن رُبا غائبة عن الزمن. الدقائق تنسكب بلا حساب وأنا مسلمة لها قيادي تفعل به ما تشاء. أيها الزمن. هل تدري لماذا وكيف ارتمت ربا التعسة على بساطك؟! لأنها لا تعرف ماذا تفعل بنفسها! افعل بها ما تشاء! افعل بها ما تشاء!

* * *

كان الفضاء كعادته رحْباً إلى الدرجة التي احتوى فيها نشيجي وبكائي. لماذا هربْتِ منه يا ربا؟ ألم تبحثي عنه الشهور والأيام؟ ها هو ذا القدر يبارك آلامك برحمته، وها أنت ذي تهربين من الرحمة. أتراك خُلقْت للجحيم؟! وردّد الفضاء عذابي حتى نفد الاحتمال، تحاملتُ على نفسي، بعد أن جمعت أشتاتها المتفرقة. وخطوت إلى بيتنا وأنا أضحك من شدة الحزن والقهر. أضحك ولا تزال أدمعي تتساقط على الحجارة كأنها ذرات نفسي ترمي بنفسها من علو شاهق..

لماذا كنت أضحك؟ لماذا كنت أبكي؟ لماذا هربت؟ ولماذا عدوّتُ بعيداً كالسراب؟ لا أعرف بالتحديد، وهذا هو الشقاء الذي كتب عنه الأشقياء....

المشهد الثالث عشر

قلت لأمي وقد بدا عليها الارتياع:

- اتركيني لوحدي..

- ماذا جرى لك يا ربا؟ بالله أريحي قلبي!..

- لا شيء يا أمي.. لا شيء!

ثم أصررت عليها في عصبية:

- اتركيني لوحدي.. اتركيني أرجوك لوحدي.

واستسلمتْ لمشيئتي على مضض. ثم خرجت من حجرتي الشاحبة بالعذاب. أحسستُ بعد دقائق أن الصمت يلفني ككفن شاسع فالتفتُّ في ضراعة أبحث عن خلاص، لقد طوَّحتْ بي التعاسة إلى الهاوية، وأخبرتْني أن لا مانع لي من الموت أو الانتحار إلا أن تنزل رحمة من المجهول، وشعرتُ بخوف رهيب يسيطر على نفسي. فاحتلتني نوبة من الارتعاش شديدة رهيبة. وانبجس العرق البارد من ضلوعي حتى أشرفت على الهلاك.

لقد كان ذنبي يطاردني كل دقيقة من هذا اليوم. ها هو ذا حسام لم يمت ولم يمرّغ وجهه في التراب تحت سلطان الحاجة والفقر كما بين لي حقدي الأعمى ذات يوم. لقد أطلَّتُ الساعة على حقيقة عظمى: إن بيتنا ليس هو خزان الحياة. وإن في الدنيا أنهاراً أخرى من أجل العطاش، إن الأرض زاخرة بسيل الحياة. قبحاً لسذاجتك يا

ربا! فقد كذبتِ عليك سذاجتك الزائفة. لقد جفّ حلقي رغم أني أفرغت في جوفي ماءً كثيراً. أهي الصحراء ما أرى؟! إنها صحراء حياتي التي هرب عنها الزيف فأصبحت عارية من كل شيء. إنها أصبحت كشجرة هرمة طوحت بها رياح السموم. وقلتُ لي: لا عاصم لي اليوم من العذاب الأكبر سوى أن أطيح بحياتي كلها. لقد احتقرتك أيتها الحياة! والآن. ماذا علي أن أفعل؟ هل أعود إلى حسام وأطلب منه الصفح والغفران؟ وصاح بي هاتف من الأعماق: بل هناك عمل آخر ينتظرك يا ربا. عمل أجَلّ من طلب المغفرة وأعظم. ربما يمحو عنك بعض الإثم والآلام. في هذه اللحظات أشرقت نفسي المعذبة وأنا أبكي من فرط الشوق إلى ترميم ذاتي. ومحو خطيئتي. وهتفت من الأعماق: الآن لا غداً.

وجدتها جالسة في الصالة وقد علقت بصرها على الباب: نظرّتُ إليها في شفقة وإعياء. واختلط علي هل هي الشفقة لأجلي أم لأجلها! كانت ترنو إليّ والفزع واضح في عينيها. جلست بالقرب منها وقد أصبحتِ كل تفاصيل نفسي جاهزة لخوض غمار البدء. وخاطبتها في هدوء عجيب واستسلام. وأنا أثبت بصري على قدمي:

- أريد أن أحدثك في أمر يا أمي..

ويبدو أنها كانت تنتظر ذلك بمنتهى الصبر فأجابتني بصوت هلوع:

- أنا معك يا ابنتي..

وقلت بنفس الاستسلام:

- لأعترف لك بشيء عذبني طويلاً..

- قولي يا رُبا، أنا معك يا حبيبتي..

وساد صمت قلق بيننا. لكن سبقتني الدموع فانسقْتُ مع التيار:

- بالله عليك يا ابنتي ارحميني..

سكت عين الروع. نظرتُ إليها فرأيت أطياف الألم المغلّف بالعطف يُعسكرُ على ضفاف العينين.

- حسام

وانضاف إلى الألم لون الاندهاش.

- حسام؟!..

وكنت أغالب القهر في صدري فلم أجب عن تساؤلها المتداعي أمامي.

- لقد ذهب منذ زمن بعيد يا ابنتي..

- وأنا اليوم أريد أن أعترف...

وأعدت النظر إليها، فوجدتها مطوّقة بالغموض.

- لقد... طرد أبي حسام لأنه - كما قلت لكم- أراد اغتصابي..

فقاطعتني خائفة..

- وهذا صحيح..

- لا، هذا غير صحيح!!

- ماذا؟!

قفزتْ «الماذا» من شفتيها كهارب من السجين.

- حكاية الاغتصاب لا أساس لها من الصحة. وحسام بريء..

ولما كانت أمي غارقة حتى النخاع في هذه الكارثة. انطلق لساني بالمزيد من التأكيد..

- نعم، حسام بريء. بريء. بريء..

- ماذا جرى لك يا رُبا؟!

صاحتْ بي أمي عزيزة.

- لقد كذبتُ عليكم، هكذا...

وانفرط عقد نفسي. تساقطت الكلمات من بين شفتي اليابستين كأنني جدار هادئ كان يصارع الأيام كي لا ينهار.. وغبت بكل آلامي في بوتقة الاعتراف. غبت بكل روحي وأنا أحس بمخالب العذاب العاتية تتخلى شيئاً فشيئاً عن قلبي فأشعر بالسلوى والعزاء - قليلاً من العزاء - واعترفتُ حتى بذلك الحب النازح إليّ من أرض الزيف، وكيف تعالى حسام عن تلويث يديه الطاهرتين بحبي الساقط. وما كان مني من انتقام لكرامتي المزوّرة. وختمت كلامي بصوت مبحوح:

- والآن أنا أقول لكم إنه بريء. وأنا الجانية..

لم تصدق أمي. فما لبثت أن اقتربتْ مني بحذر كأنها تقترب من مجنونة. تحسَّستْني مشدوهة حيرى، وقالت لي بصوت مرتعش:

- هل أطلب لك دكتور يا ابنتي؟!...

ضحكت بعنف ساخرة من أمي عزيزة. لقد انفرط عقد احتمالي مرة أخرى. ولم تحتملني قدماي الخائرتان - وكنت قد قمت من مكاني - فهويت على الكرسي الذي بجانبي.

- طبعاً أنت لم تصدقي كلامي!!...

قُلْتُها وأنا تحت رحمة الضحك والبكاء... وتابعتُ:

- صدقيني يا أمي. ربا هذه الفتاة المتعلمة في أرقى مؤسسات الرباط- وضحكتُ- هي نفسها التي ارتكبتْ هذه الأخطاء البشعة...

وصاحت بي أمي مرتاعة وهي تقاطعني:

- رُبا!

ولم أجب نداءها، فقد كان السرُّ قد تحطم في صدري حتى النهاية.

- وحسام.. هذا الفتى اللقيط...

نطقتُ الكلمات الأخيرة بانكسار وألم مبين.

- هو نفسه الذي رفض الخضوع لجنوني..

وبدأتْ أمي عزيزة تأخذ كلامي مأخذ الجد:

- إذن، فقد شاركنا جميعاً في ظلمه بسبب خطأ لم يرتكبه..

قلت باعتداد:

- أجل بسبب خطأ لم يرتكبه..

وساد الصمت فيما بيننا. تحت ظلاله الوارفة كنت أحدث نفسي بميلاد عمر جديد. لن يكون فيه حسام هو اللقيط. بل رُبا هي...

- مصيبة.. مصيبة..

- لا تنزعجي يا أمي. فأنا أرغب في العقاب..

فالتفتت إليّ في غضب وعصبية:

- عقاب! أي عقاب؟ بعدما فات الأوان أيتها الحمقاء..

- ورغم ذلك أريد تصحيح الأوضاع..

كانت أمي تقطع المكان جيئة وإياباً. اليوم يا رُبا فتحْتُ عليك أبواب الرحمة المؤصدة، ورضيت لك الراحة ملجأ..

- يا للمسخوطة!.. يا للمسخوطة!

وتوقَّفتْ عن الحركة فجأة:

- اسمعي. لا ينبغي أن يعرف هذا الخبر أحد.

- نعم؟!

- كما تسمعين..

ضحكتُ بعصبية. كنت أحس أن أمي تحاول اختطاف هنائي الوليد. فصددتها بخشونة:

- سأعترف لأبي أيضاً..

- لقد جُننتِ أيتها المسخوطة.. جُننْتِ..

- بل أخيراً ظفرتُ بالعقل..

هل تعلم ما هو الإحساس الذي غمرني في هذا المساء؟! إنه إحساس الأطفال بيوم العيد، ولذلك حينما تساءل أبي مصدوماً عن مدى صحة الأقوال. لم ينتبني أي خوف. بل قلت له بهدوء:

- نعم يا أبي. كل ما ذكرتْه أمي صحيح..

كان الجواب مجسداً في تلك الصفعة التي لن أنساها. إنها لم تؤلمني. لكنها نزلت عليَّ برداً وسلاماً لأنني كنت بيني وبين نفسي في حاجة إلى عقاب ما. التفتُّ إلى أختي كريمة، كانت واقفة بالقرب من الباب. كان يبدو عليها التأثر. ابتسمت لها بهدوء.

- هذه هي التربية التي ربيتك عليها؟!

صاح أبي وسخرت منه في الأعماق. لكن أمي عزيزة تدخلت لتخفف من تأزم الموقف:

- لو نعرف فقط أين هو؟...

وتذكرت بائع الثياب بباب الأحد..

- ما الفائدة الآن؟ ما حدث قد حدث..

واتجهت إلى الباب بهدوء:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

وقلت لأبي الحاج بنفس الهدوء:

- لقد اعترفت لكم بالحقيقة يا أبي. وهذا كل ما كنت أريد..

وغادرتُ المكان. وصوت أبي يتعقبني:

- هذه نتيجة تربيتك.. هذه نهاية تربيتك..

وكان بالطبع يقصد أمي..

* * *

كـان الشـارع يلتف فـي سكون وهـدوء. وكـانت المصـابيح تـرسل أشعـتها الصـفـراء فـتـبدد كتـائب الظلام. وكانت الـريح تداعب أوراق الشـجـر - المصطفة على الرصيف - برفق ومودة كأنها تواسيها على فصل الشتاء. كان بودي لو أرى قـرص الشمس الجـريح وهو يهـوي في قلب أبي رقـراق. ولكنه كان متوارياً تماماً في كبد المحيط. تاركاً وراءه ألواناً مسفوحة دامية. وكنت أسير هادئة النفس مرتاحة الوجدان. يا لها من لحظة مفعمة بالعزاء حُبلى بالاطمئنان! لقد فتحتْ أمامي عوالم من الصفاء لم تكن ميسرة لي من قبل اليوم.

رأيت في هذه العوالم الجديدة نفسي. نفسي التي كانت متوارية عني خلف أطباق مخيفة من الأوحال. وشعرتُ بحاجة قارحة مُلحة إلى إنسان يشاركني شجني القديم وإحساسي الوليد. فلم أجد سواها أقرب إلى نفسي. اتجهت إلى السفارة السعودية. ثم انعطفت إلى الشارع المحاذي في اليسار ولما انتهيتُ إلى الساحة الرحبة بدا المنزل مغموراً بالأشجار ملفوفاً بالهدوء. لأحدّثها بما في قلبي. وضغطتُ على الجرس. ولأطْلِعنَّها على فعلي القادم. وفُتح الباب على وجه الخادمة.

- أهلاً..

- شمس موجودة من فضلك؟..

- نعم موجودة...

- قولي لها ربا...

ابتسمتْ وهي تفسح المجال للدخول إلى الحديقة. وذهبتُ بخفة إلى الداخل. ما أقرب هذه الأعشاب إلى نفسي! وتطلعتُ إلى السماء وقد لفّها غبش المساء. ولما كان السكون هو مالك الزمان في تلك اللحظات. فقد أطلقْتُ أسراب خيالي الحزين تقطع أجواز الفضاء..

أيكون حسام هناك في هذه اللحظة؟ لقد صار عزماً جباراً في نفسي أن ألقاه وأطلب منه الصفح والغفران. ولئن رفض لأجثونّ أمامه والإخلاص شفيعي. لكن متى؟ وهل طهرت نفسي من كل أدرانها؟

- ربا؟! شيء لا يصدق..

والتفتُّ إليها وهي تقطع درجات السلم بسرور. عانقتني بمودة فبادلتها الصفاء.

- أهلاً يا شمس. لقد وعدتك بزيارتي..

- سعيدة جداً برؤيتك يا رُبا..

ودخلنا إلى البيت وهي تتابع بترحيب:

- ليس هنا في البيت سواي..

- إذن فأنت سعيدة يا صديقتي..

داعبتها كمن يبحث عن الإشراق..

- أوه سعيدة. ولكن لم أتعود خُلُوَّ البيت من والدي.

تذكرت أمي عزيزة التي لا تكاد تجلس في البيت واستطردتْ شمس مداعبة:

- وأنت هل مللت البيت؟!

عرفتُ قصدها. فطوّح بي الخيال إلى لحظات السواد: روبيرتو وباقي الأصدقاء، أبديت لها شعوري بالوحدة ولكني أردت تحويل مجرى الحديث.

- ما هي الأخبار عن أروى؟..

فصاحت بي وهي تقدم لي مقعداً للجلوس:

- ألم نتصل بك. لقد وقع ما لم يكن في الحسبان.

- ما الخبر؟ إنني انقطعت عنهم منذ زمان..

- لقد قرّرا الزواج: هي وجلال..

وقلت بلا مبالاة:

- عظيم....

سكتنا معاً. ثم رفعت إليها بصري فوجدتها تتأملني باهتمام. ابتسمت.

- ماذا بك يا رُبا؟

كنت أود لو تسألني هذا السؤال. لكني واصلتُ صمتي.

- لا بد أنك تخفين عني بعض الأسرار..

- أجل يا شمس. لقد حدثتْ أشياء...

عقبتُ عليها وأنا أتذوق طعم الطمأنينة مشوباً بحزن قديم. شجعتني على الكلام فَدَلَفْتُ إلى الموضوع.

- لقد اعترفتُ لأسرتي بالحقيقة..

واتسعت عيناها للمفاجأة. كنت أعرف أن الخبر سيقْتَحِمُها فتابعتُ.

- تعذّبتُ حتى الموت. فقررت أن أضع حداً لعذابي..

- وماذا كان موقف أبيك؟

قلت باستهانة:

- اكتفى بصفعي. أما والدتي فكانت تحب طي الموضوع..

علقت على كلامي بتأثر:

- هذه خطوة جيدة. ولكن ماذا بعد؟

وطرحتُ أمامها الباقي مرة واحدة:

- ووجدْتُ حساماً..

فقالت بصفاء وهي تقترب بكرسيها مني:

- إذن فقد انتهى كل شيء.

- لا بل كل شيء بعد اليوم، في نقطة البداية.

قالت والدهشة ملء عينيها: كيف؟!

المشهد الرابع عشر

عربد السحاب في الفضاء. وتساقطت من قبل أوراق الأشجار وهجرت الأطيار أعشاشها. والتحفت السماء بلون الرصاص. كانت السحب تتزاحم في حركات غامضة كأنها تزمع على أمر كبير، وكان الشريان الكبير القديم، والذي يبتدئ مساره من باب الأحد، وينتهي في كسل وإعياء بإطلالته على وادي أبي رقراق. يبدو وكأنه غير عابئ بتحولات الفصول، ولا بفوضى الخريف؛ فالمنازل القديمة عن يمين وشمال تبدو كأنها سئمت – أو ألفت – تأوهات الريح وهي تسافر بين الدروب الضيقة؛ فجثمتْ في مكانها بصبر وإهمال. والأسفلت الذي يغطي أرض الشريان والروافد الضيقة التي تبدأ وتنتهي منه، هذا الأسفلت يبدو وكأنه انتصر على وقع الأمطار وسياط البرد؛ فهو يفسح لها صدره في سكون ويقين، وهؤلاء الباعة الواقفون على طول الطريق، الذين تسخر حيويتهم وإخلاصهم من الآلام حتى وهم يناورون حُرّاس الضرائب.. ها هنا تختفي الحياة في عذريتها الأولى! وقلت لنفسي مرة أخرى: ما أجمل أن نلتقي مع الحياة، ولما تتزين بالمساحيق!

ازدادت خفقات قلبي حين وطئت المكان المرصود. كنت أنبش كل الأمكنة ببصر المضطرب، ترى أين حسام؟! اندهشت كيف اقتربت بروحي – فجأة– من هؤلاء البسطاء؛ وأنا أبحث فيهم عن أخي وحبيبي. لقد غيرتك الآلام والمنعطفات يا ربا! فأنعم به من تحول

ابتليتُ به في ثغور حياتي! في نفسي رغبة للسياحة في هذا الزقاق العامر بالحياة. ولذلك فقد تبِعتُ رجلي وهي تجوب دنياه العجوز. وتداخلتْ في صدري مشاعر الخوف مع الخيبة والأمل وأنا أنتهي إلى القوس الصغير الذي يعلن نهاية الزقاق.

فطالعني نهر أبي رقراق وهو يُوسِّع من مَصَبِّه على أعتاب المحيط، كل الأشياء هنا تُلهِمُ بالأصل؛ القوارب المنتشرة على صدر النهر، طيور النَّورس وهي تراقص الهواء بين البحر والشاطئ. لأملأنّ بصري من هذا الكون النقي، وتماديتُ في مجاراة نفسي فنزلْتُ إلى ضفة النهر الساكن. لامسني النسيم المُخَضَّبُ بطعم البحر فأغْمضْتُ بصري في استسلام، وتركت الهواء يملؤني حتى الأعماق. أسكرتْني رائحة الماء والطحالب، وجُلْتُ ببصري إلى أبعد نقطة في الأفق فتراءى لي البحر سيد الكائنات. تراجعْتُ في نشوة، وقد بدأت الأمطار تتساقط شيئاً فشيئاً وهي ترسم دوائر رائعة على صفحة الماء فجعلتُ النهر ورائي لأعود، ولكن.. لقد هبط قلبي، إلى القاع السحيق! وتوقفتْ أنفاسي تماماً حتى كدت أتساقط أشلاء. لقد وقفتُ وجهاً لوجه أمام حسام وهو يتأملني بهدوئه الذي لم أنْسه...

مرة أخرى حدثتني نفسي بالهروب بعيداً حتى أتوارى في الضباب ولكنه البحر ورائي وحسام أمامي. انعقد اللسان فكأنني نسيتُ اللغة التي خبرتُها. وجمَدَ البصر الكليل على شخص حسام فَتعلَّقتُ به مشدوهة كأنني غريق. وتلاشت أنفاسي وتلاحقت دقات قلبي الوجف. هو نفسه حسام. بنظراته الواثقة، وتطلعه المستكبر

المتعالي العنيد. وجبينه الواسع المائل إلى السمرة. وحاجبيه المعقودين فوق العينين السوداوين، شيء واحد لم يكن، وهو ماثل أمامي: لحية منتظمة بعناية. ووجه يتألق بالخبرة والأمان.

وانتزعني صوتُه الحنون من ذهولي:

- كيف أنت يا رُبا؟..

كنت لا أزال أتأمل بانشداه تفاصيل وجهه التي وشتْ بالقوة والثقة والاعتداد. ولكنها نفس التقاسيم الحزينة. وهمستُ بارتباك وخجل:

- أنا... بخير، بخير..!

وسقط بصري على التراب. منهزماً أمام نظراته الزاخرة بالأمل.

- وكيف هو الوالد والوالدة؟

- بخير.. بخير..

أجبْتُه والبصر لا يزال جامداً على الثرى. أيكون الزمن قد توقف عن المسير. إن الأشياء لتبْدو وكأنها أضربتْ عن وظائفها، وركَّزتْ أبصارها علينا منتظرة تلك اللحظات الحبلى بالترقب. أما هذا المطر الذي تسابقتْ إيقاعاته على الحصى، فكأنه ليس إلا إيذاناً بولادة أشياء شتى. وفكَّرتُ في الخلاص فقلت له باضطراب:

- لقد كنت أبحث عنك..

- لقد كنت أعرف..

عقب عليَّ صوته الواثق الذي لم أفترض غيابه، فرنَوْتُ إليه صامتة. وسألني بهدوء:

- لماذا تبحثين عني يا ربُا؟!...

حاصرني السؤال فهربت ببصري إلى البحر.

- أريد أن تغفر لي..

- لقد غفرت لك..

هكذا جاءني الجواب كأنه قرار قديم. فجمعتُ أشتات ذاتي ووضعتُ آمالي بين يديه:

- وأن تعود معي إلى المنزل..

في هذه اللحظات - وقد بلّلنا المطر- كان ينظر إلى الأرض مُصِرّاً على الصمت. آذاني ذلك حتى تساقطت دموعي مع رذاذ المطر، وتصارعتْ عواطفي فخاطبته بإخلاص:

- حسام.. أنا..

وتلَجْلَج لساني من فرط القهر:

- أنا إنسانة آثمة.. فهل تصفح عني؟!

- قلت لك يا أختاه. لقد غفرت لك.

فاقتربت منه قليلاً بلا وعي مني:

- لا يا حسام.. أنت لم تغفر لي..

فأجابني وهو يشيح بوجهه عني إلى البحر..

- لقد شهد الله أني فعلت..

وتسريتْ هذه الكلمة إلى نفسي بحنان يطغى على الوجدان. فرجوته باكية:

- إذن، فهلُمَّ معي..

لم يجبني وقد فار تنور الأمطار، وبادرته بحرقة وأنا أصارع شبح ابتسامة حزينة على شفتي:

- لقد اعترفتُ بكل شيء لأبي وأمي..

كانت هذه الكلمات كافية لتكتسح محياه بشتى التعابير الجميلة، رنا إليّ طويلاً وعيناه تحملان ذلك العمق القديم الذي أذكره كما أذكر عذابي وحياتي. فقلت له مرة أخرى:

- أجل يا حسام. فأنت اليوم لديهم بريء..

- لنمشِ قليلاً..

واتجهنا صوب القنطرة الفاصلة بين سلا والرباط. ونحن ساهمان كل في أفق.

- لقد فات الأوان يا رُبا. مع أني أحبكم.

- أبداً يا حسام. لنبدأ الحياة من جديد.. و..

وقاطع كلماتي المتوسلة متوقفاً كلية عن السير:

- رُبا. أنت لم تفهميني، يا أختاه..

رنا إليّ في إشفاق.

- إن مكاني ليس معكم. مكاني الحقيقي هنا..

وأشار إلى الزقاق القديم الذي ينتهي إلى باب الأحد، ولكني نظرت إليه باستنكار، فكرر عليٍّ كلامه بمودة وإصرار:

- لقد وعدتكم يا رُبا. أتذكرين؟ قلت لكم إنني لن أعود..

وهدأ تهطال الأمطار وكأنه يكتب الكلمة الأخيرة في قرار حسام.

- ولكن أنتم يا رُبا. ربيتموني ولهذا سأزوركم ذات يوم..

انهارت الطاقة وتشقق الاحتمال لكلامه القاسي - فهكذا رأيته- فصَحتُ به في توسل:

- حسام. أرجوك إنك تعذبني..

ونزلت دموعي وأنا خاشعة الأحزان. تتأوه نفسي من قساوته التي ما عرفتها قط في حياتي. قساوة قهرتني حتى العظام. أيا الله الذي لم أعرفه قط، أدركني...

- قلت لك سأزوركم يا رُبا..

فأجبته منكسرة الروح:

- ماذا تقول يا حسام؟ إننا نبحث عنك لنردك إلينا!

- ولكنني قررت وانتهى الأمر..

- لا يا حسام العزيز. لم ينته بعد أتسمعني؟. لم ينته!

* * *

تأملني طويلاً وأنا أغالب القهر. وأخيراً أتاني صوته زاخراً بالاعتبار:

- هل هذه رُبا التي أراها..

- أجل يا حسام. هذه رُبا المتعجرفة يعاقبها الألم..

فنظر إليّ لحظات وقد أشرفنا على نهر أبي رقراق. وعلّق بإعجاب:

- شيء حسن يا رُبا.. شيء حسن..

فازددتُ استسلاماً وأنا أقول بلا وعي مني:

- وأريد المزيد...

- إذن سوف تصلين.

فقلت له والأمل يؤسس خيامه على صدري:

- أصل إلى أين؟...

- إلى ذلك المزيد...

قال لي مبتسماً وهو يضع يديه في جيب معطفه. كنت أريد أن أعود به إلى البيت ولو بالإجبار. يغفر لي أن نفسي لم تتخلص من رسوبات الماضي بعد لكنه نظر إلى ساعته وقد أطلّت علينا الشمس وراء ركام السحاب. ضحكتْ الكائنات من حولنا وغنّت الريح على قلب الفضاء المغسول. ليتَ القلب يغتسل مثلك بماء لم يخالطه التراب؟! وقال لي مودعاً:

- هكذا يا رُبا.. السلام عليكم..

- هل هو وداع أخير؟

سألته بصوت وجل خائف فأجابني جاداً لم يفارقه الوداد:

- بل سنلتقي يا رُبا..

- متى؟.. متى يا حسام؟..

- عندما تصلين إلى ما تأملين. سنلتقي كثيراً..

وضحك لأول مرة فتذكرت العهود. ولم أفهم مغزى وعده الأخير فاعترضتُ طريقه بعناء خائف وقد عُدْنا إلى رصيف النهر. تأملني طويلاً وهو يضحك باستسلام...

المشهد الخامس عشر

لم تعُدِ الأيام غليظة القلب كما عهدتها خلال فصول الضياع والانتحار. فصول الاستكبار على الحقيقة وقمع الروح. فصول تهاطلتْ فيها أمطار العذاب كأنها الطوفان أو الفناء.

ما أجمل الانتصار على الذات! إنه الخروج من القبر إلى الحرية. من المعتقل الرهيب العالي الأسوار، إلى أرض الرحمة والحنان، فحين نستطيع الإخلال بنظام الرقابة في حياتنا، نحس بعد ذلك مباشرة أننا نستحق الحياة. ونستحق لقب الأحياء... ولكن. لقد ابتليْتُ اليوم بقلقين جديدين:

قلق نابع من إعراض والدي عني. فهو لا يكلِّمني إلا عند الضرورة. حيث تكون الكلمات لا بد منها، وقلق آخر يتدفق باستمرار في فضاء نفسي من أجل الوصول إلى الشاطئ الموعود. إنني لم أعد مقتنعة بنظام حياتي الحاضرة رغم أني ودّعت عادات الخذلان التي تقتصر فيها الأيام على فصل واحد رتيب. فصل هو كالحجارة الحمراء المنتشرة في الصحارى..

بالأمس كنت أعرف ما أريد. كنت أحمل عذاب الأمل للاعتذار والغفران. ولقد حصل. تنفّس المغفرة على يد أخي وحبيبي حسام. فماذا أريد أكثر من ذلك الإشراق؟! ماذا أريد أكثر وقد غربت شمس تهوامي في جزيرة الندم؟ وآن لي أن أبحر في بحار العزاء الكريم فماذا - إذن - أود بعد ذلك الغروب؟...

شيء ما يخدش سعادتي. يكدر حُبوري. يكسر أمواج الخفقان في قلبي، لقد كان العذاب الذي قضيت الشهور الطوال في ضيافته الشرسة كافياً ليوقظ وعيي لألتفت فجأة إلى تفاصيل وجودي. أن أتأمل بصمات أيامي. أن أغوص الأيام والليالي في ماهية كينونتي وحياتي. رنوت إلى كل ذلك كمن يصطدم به لأول مرة. هذه حياتي حقاً! ولكن هل صحيح أنني سعيدة بها أم الوهم ما أرى؟ لا.. فلستُ سعيدة لأن سؤالي عنها يكفيني للاقتناع بنقيضها.. وداهمني الشعور بعدم الأمان. كنت أطرح على نفسي أسئلة أكبر مني، أو أكبر من وعيي الذي تعّود على الخيارات السهلة. واندهشت من عقلي إذ وجدته يتساءل عن معنى وجود الإنسان، وعن حقائق الأشياء والحياة. أما الله فقد عرفته في غرفة حسام. قوةً خفيّةً تُضفي عليّ مودة غامضة ورحمة. ولكنها رحمة تصيبني بالقلق لأني لا أفهم تفاصيلها بما يكفي. ربما لأني كنت لمّا أرتقِ إلى مقام المعرفة.

عرفتُ الأزقة النائية عن حسان. من اليوسفية إلى دوار الدُّوم إلى التقدم إلى يعقوب المنصور إلى المحيط.. لقد كنت أبحث حقاً عن نفسي «عندما تصلين سنلتقي إلى أين سأصِل؟ إلى ذلك المزيد. كذلك كانت نهاية لقائي الأول مع حسام. قال كلمته الأخيرة وأطلّت الشمس ضاحكة من وراء السحاب المغسول كأنها تضع اللمسات الأخيرة على ذلك القرار. ووقفت في وجهه بعناد خائف لأني لم أكن أريد للقائنا نهاية فوقف يبتسم باستسلام. أسعدني أن أنجح في إيقاف جبل كبير هو أخي.. سرْنا جنباً إلى جنْب نحسب خطواتنا البطيئة. لعلنا كنا

نرتاح من الصفح أو طلب المغفرة. لعلنا كنا نراجع إيقاع الزمن المتوقف حولنا. حين وصلنا إلى باب الأوداية طالعنا البناء الملتفع برداء السنين. وقال لي إنك ستعرفين اليوم أسرتي الجديدة. اندهشت كمن يستمع إلى تحول الشمس عن مغاربها! عن أي شيء تتحدث يا حسام؟ وتأملني كعادته قليلاً قبل الجواب. إنه دائماً هكذا! عميق التأملات قليل الكلمات. ستعرفين أبي.

لم أصدق كأنما قيل لي إن القمر خرّ من السماء. ما لك يا رُبا؟ ألست جديراً بامتلاك أب؟! قالها بنبرات لم أدرك مغزاها..

- لا أبداً. بل أريد أن أقول...

- أنا أعرف ما تعجزين عن قوله..

تعلّقتُ به بحبال هي الحيرة والاستسلام. ولم أنبس بحرف.

- ستقولين كيف يكون لحسام أب؟!...

ظلّتْ عيناي متعلقتين بعينيه كالغريق، فقد كانت حجب نفسي مفتوحة أمام شعوره النظيف - وبادرني - وهو يشجعني على المسير - باعتبار:

- أجل يا رُبا. حسام له أب حقيقي..

وخرجْت من عباب انبهاري. سافرتْ عيناي بين وجهه والأرض. وتلك هي آيات عجزي عن التعليق بيد أنني غمغمت بحيرة أشد من الأولى:

- حسام. أرجوك وضّح لي إنني في دوامة حقاً.

- حينما نلتقي ستقفين على كل شيء..

* * *

وازدادتْ الأيام تمادياً في اختراق بحر الزمن. ولم تزدد نفسي إلا حيرة واضطراباً. إنه عذاب جديد لا عهد لي به. لقد اختطفتني الأسئلة كأنها العقبان. أسئلة تتأرجح بين الكون والحياة لتنتهي إلى مرفأ حسام. لقد بدا لي أنني أضعف من أن أحتمل المزيد - إن كان هناك مزيد- وقرّرتُ أن أضع نهاية لأسلوب حياتي فقد كانت معلقة في الهواء. كانت مكبلة بين الجنة والنار تتجاذبها الأقدار المجهولة كما تفعل الأمواج الغاضبة بجثة غريق بين الحياة والموت. إنه قلق جديد ما أرى. وهربت مرة أخرى إلى حجرة حسام.... لم أجد سوى الكتب فأغرقت نفسي في دنيا الأفكار. إنها سماوات جديدة من الجدوى والفرحة والامتنان. طريق معشوشبة بما كنت أجهله من أزهار أخرى للحياة. لم تطُلّ حيرتي في سبيل اختيار المواضيع. لقد كانت خزانة أخي وحبيبي قريبة مني كل القرب، فتعّرفت على أجيال جديدة من المعارف والأفكار، وحتى حين قدّمتَ إليّ شمس نسخة من الإنجيل وجدْتُ نفسي ووجداني ينسجمان مع البساطة والإشراق. ولم لا؟ فبين الوضوح والغموض برزَخٌ يعسكر منذ الأزل. برزخ جليل عظيم مُهاب. ولكنني اقتحمته كي أقف على منعطف الاختيار..

إنه صعب منعطف الاختيار. صعب في ذاته لا من أجل أي سبب آخر..

ليس أصعب من التخلّي عن اثنتين وعشرين سنة من الحياة. إنها عمر كامل بكل المعاني.

عُمر يجذبني إليه بكل ما يملكه من ضغط أو أثقال. عرفتُ ساعتها ما معنى التربية. فقد كانت قادرة أن تكوّن مني ملاكاً أو

شيطاناً. وحتى حين كوّنتُ من معاناة الشهور رصيد إرادتي الثابتة، كنت أشعر وكأن أيادي قوية تقف وراء المجهول، تجرُّني بخبث إلى الوراء. وكنت أحس بأنني أكرهها بعنف كأنها أعدى الأعداء. ولكنني أدّيتُ الثمن غالياً كاد أن يكون مُسدّداً من حياتي..

حين كنت محمولة بين يدي رجال الإسعاف، لم أكن أعقل ما حدث لي. فقط، كنت أحس بكلمات بعيدة غامضة كل الغموض. كنت غائبة عن الوعي بيْدَ أن الإحساس بالحركة لم يكن ميتاً كل الموت. عويل السيارة. آهات الهلع الآتية من بعيد بكاء أمي أو أختي كريمة فلست أدري. بعد لحظات غِبْتُ عن الوعي فقلتُ وداعاً للدنيا..

* * *

حين أفقت كانت تنظر إليّ بهدوء وابتسام. عرفت أنها الممرضة.

- السلام عليكم. أنت في أمان يا أختاه..

تأملتها في إعياء شديد. فتاة هادئة جميلة. تألفُها العين والوجدان من أول نظرة.

لا يبدو منها غير الوجه الممتلئ بالحياة واليدين الخاليتين من الأصباغ. عادت إليّ صورة حسام.

ابتسمت وقد غمرتني موجة طاغية هادئة من الاطمئنان:

- أنا فاطمة. هل أنت بخير؟

- أجل بخير. أين أنا؟

قابلتني بابتسامتها المشرقة. وبادرتني وهي تخطو بحيوية نحو الباب:

- ارتاحي قليلاً يا أختاه. سأدعو لك الأسرة..

وأردت الجلوس فدارتْ أركان الحجرة البيضاء الأنيقة حولي وهوى رأسي على الوسادة. أأكون في المستشفى؟! وجدت الجواب في معدات الغرفة الصامتة. وأطلّت أمي بوجهها الخائف ومن ورائها اقتربتْ أختي وأبي. ورحلتْ عيناي في إعياء ومودة بين تلك الوجوه العزيزة. وفجأة أحسستُ أن صدري يمتلئ بشيء حزين ففاضت عيناي. أخذتني أختي في أحضانها ولكنني أغرقت نفسي في بكاء صامت مكلوم.

- لا بأس عليك يا ابنتي الحبيبة.. لا بأس عليك..

أجابتني أمي عزيزة بصوت مختنق. في حين سمعت نشيج كريمة وهو يدق أبواب السمع. بادرني أبي بلهجة فيها من نفاد الصبر أكثر مما فيها من الخوف:

- قولي لنا فقط ماذا حدث يا ابنتي...

وجدت نفسي عاجزة عن الجواب، فأجبت أبي كالهاربة:

- صدقوني يا أبي. أنا نفسي لا أعرف ما حدث لي. هويت مغمى علي بالقرب من المركز الثقافي الفلسطيني. وها أنا أجد نفسي بينكم.

صمتٌّ لحظة لأستردّ فيها أنفاسي ثم عقبت بصوت منكسر:

- أنا متعبة جداً يا أبي. متعبة جداً.. جداً..

- من ماذا يا رُبا؟ من ماذا؟

- لا أعرف بالتحديد. صدقوني أرجوكم.

انتفض صوتي في أرجاء الغرفة الصامتة. ولكنني غمغمت في الأخير بصوت كالحشرجة:

- لقد.. تعبتُ من حياتي..

في هذه اللحظات. دخلت علينا فاطمة والبسمة تشعّ من عينيها. أشاعت في الجو روحاً من التفاؤل والطمأنينة. واقتربتْ من عائلتي بأدب وهدوء:

- أرجوكم. دعوا رُبا للراحة الآن..

- ولكن..

- رُبا بخير يا والدي. رُبا بخير..

قالت هذه الكلمات وهي توجه إليّ نظرات ذات معنى. انسحب كل أفراد أسرتي، ولبثتْ فاطمة معي تنتظر خلوّ الحجرة التي عادت إلى الصمت. تبادلنا النظرات: نظرات حائرة من ناحيتي. ثابتة تشع يقيناً من ناحيتها. تبادلنا التحايا الصامتة بفضل ابتساماتنا: ابتسامات منكسرة بالإعياء من ناحيتي. زاخرة بالسكينة والاطمئنان من ناحيتها. لمْ أشأ مبادرتها بالحديث لأني كنت في واقع الأمر راغبة عن أي تواصل مع الخارج. كنت أرغب في الانضمام إلى طبقات نفسي كي أنصت إلى أحاديثها التي لا تنتهي. ولكنها - أي فاطمة - كانت تستدرجني للكلام والمشاركة بكل شيء فيها. أي نوع من البشر أنت يا فاطمة؟ وكيف تكونين قادرة على اقتحامي وربط أسباب العبور بيننا، في حين أعجز أنا حتى عن الكلام.. جاءني صوتها المطمئن كأنه آت من فوّارات الأمل. كنت غارقة في عينيها الممتلئتين بالحياة.

- والآن. كيف أنت يا أختاه؟..

- بخير أشكرك على العناية بي..

- الحمدُ لله.. ينبغي أن نتوجه بالشكر إلى الخالق يا أختاه.

واقتربتْ مني باسمة ثم جلستْ على حافة السرير:

- دعيني أقدم لك نفسي. فاطمة السلموني. أعمل متطوعة في هذا المستشفى. ولكنني طالبة في كلية الطب..

وتأملتها بإعجاب لا يخلو من بعض الاستغراب. فأنا لم أطلب منها الاقتراب أو التعارف، ولكني وجدتها فرصة لتجديد الحياة بعلاقة دافئة كالتي تبشر بها فاطمة..

- وأنا رُبا السعداوي. طالبة في كلية الحقوق.

وجدّتُ فيها الرفيقة الطافحة بالأمان. فظفِرْتُ بشيء غير قليل من السعادة، إنها فتاة تملك القدرة على إشاعة العزاء في قلب فتاة حائرة مثلي. فتاة انهارت في كيانها كل خلايا الدفاع. حتى انتهى بها الأمر إلى هذا المستشفى مثلي..

ولمستُ بشائر الامتنان والفرحة في عيني أمي، وهي تقف على تقدمي المتسارع نحو الشفاء من ذلك الانهيار العصبي وحالما ودّعت المستشفى إلى منزلنا بحسان...

* * *

لشدّ ما اشتقت إلى رؤية الصومعة الضاربة في كبد السماء! ولشد ما اشتقتُ أيضاً للقاء حسام! غزاني الأسى للأسبوع الذي

اضطرني فيه الكتمان والحيرة إلى البقاء رهينة وراء قضبان الانهيار. ولكنني ظفرت على أية حال بصداقة دافئة، وقلت لها وأنا أقف بالقرب من سيارة أبي المرسيدس.

- أنا في انتظارك يا فاطمة...

- إن شاء الله يا أختاه. أزورك يوم الجمعة القادم بعد صلاة العصر.

- إن شاء الله.

كنت سعيدة بالتلفظ بكلماتي الأخيرة. وتعانقنا بمودة حقيقية لا يشوبها كدر المجاملات أو الضرورة. إنها الروابط التي تولد من أجل ذاتها لا من أجل أي سبب آخر واستسلمت للذكريات القريبة. فأغمضتُ عيني حين كان أبي يتجه بسيارته إلى البيت العزيز.

- لا تستسلمي للقلق يا رُبا. فاللهُ أرحم بكثير مما نتصور..

- أجل. الله أرحم بكثير مما أتصور.

- عليك بالصلاة فهي خير ملجأ للمحزونين والراغبين في الاطمئنان..

- ليتني أعرف الطريق إليها!!

- الطريق واضحة كهذه الشمس المترقرقة بالأنوار..

- ترى هل يغفر الله لي كل شيء؟

- أجل يا أختاه. فقط أن تقفي على بابه الحق.

وقلت لها ونحن نعود إلى حجرتي بالمستشفى:

- لقد قالت لي شمس إن الطريق إلى الله واحدة؛ الكنيسة والمسجد شيء واحد.

فضحكت فاطمة وهي ترنو إلى الأفق:

- إن الدين عند الله الإسلام..

لمستُ من فاطمة الوضوح في الحديث. ومن شمس كلاماً بلا شاطئ ألجأ إليه. أيها الأفق البعيد!! اقتربْ كي تراك فتاة حائرة مثلي! وجاءني صوتٌ يلحُّ عليّ في الجواب والعودة.

- رُبا. لقد وصلنا يا حبيبتي. رُبا. رُبا..

وانتبهتُ إلى ما حولي السيارة تقف بباب بيتنا. أمي تلحُّ علي لليقظة. لقد نمتُ خلال الطريق. فتحت لي أختي كريمة باب السيارة. بينما تقدّمنا أبي نحو الباب المعّمم بالقرميد الأخضر. كأن أفراد عائلتي عادوا إلى مصالحتي بعد أسابيع الجفاء. ليتك أيها الغد تتكشّفُ لي عن إيقاع التغيير! أيّها الغد الغامض. بين يديك الجليلتين إما أن يكون عمري من أجل التحول، أو النكوص إلى الانتحار. وقالت لي أمي عزيزة وهي تطمئنني:

- انسي ما حدث يا رُبا. فهذه رغبة أبيك أيضاً.

وكنت لحظتها مغمضة العينين أستسلم للنوم.....

المشهد السادس عشر

قالي لي حسام مداعباً ونحن نقف متقابلين أمام «باب الأوداية».

- كيف عرفت مكاني؟

- بالقلب يعرف المجهول...

أجبته بابتسامة لم تتخلص بعد من تعب المرض. عادتْ إلينا حرارة الزمن الذاهب، لكن لا يزال الحَرَجْ يبحث عن إقامة أطول. نسج بيننا- من أجل ذلك حجاباً من صمت. وها هو ذا حسام يمزق الحجاب:

- هل يمكن أن تتأكدي من أننا فوق أرض الصلح؟!

- ليتني أستطيع ذلك!..

- إذن فالله غفورٌ رحيم..

وندّتْ عني تنهيدة أخرجت من القلْب بقايا الدَّرَن. تساءَلْتُ في نفسي هل يكون الإنسان قادراً دوماً على الصفح؟. وأجبتُ عنها بأن ذلك يتوقف على درجة نقاء القلب والروح. فإذا أغرق أحدنا بعيداً عن الحق لم يجد طريقاً للمغفرة. إنها صعبة إرادة المغفرة! إنها هكذا، ودوماً بعيدة المنال عن القلوب الضيقة. ولكن ما أكبر قلب حسام! وأشرفنا على المحيط الأطلسي فبدتْ لنا الأمواج تتعقب نفسها برفق حبيب. وداعبنا النسيم السكران بأنفاس البحر فانتعشت نفسي. والتفتُّ إلى حسام:

- تعرفتُ على فتاة. لم أرَ مثلها من قبل..

كنت أحب أن يتبدد بيننا السكوت.

- صحيح؟. أين تعرفتِ عليها؟..

- فتاة وجدتُ فيها البساطة والصدق والأمان.

- وهي طالبة في كليتك...

- تقصدين الطب؟..

- أجل. كلية الطب.

- عظيم..

كانت هذه الكلمة هي تعليقه الوحيد. وكنت أود لو يسألني عن تفاصيل أخرى من حياتي..

آه لو تعرف يا حسام كم انحشرت في عذاب السعير؟! وأي ثمن أديت كي أتخلص من داء الأنانية الخبيث! ترى هل لديكم دواء لذلك الداء؟ وتوقف فجأة عن المسير. التفت إلي وتأملني كما يتأمل أب حنون طفلته الصغرى. هكذا هو حسام. مخلوق يتجاوز عمره مدى الدهر. وقال لي وهو يشير إلى ناحية الشريان القديم:

- رُبا. سأعرفك اليوم على أناس جدد...

- من هم هؤلاء يا حسام؟

- أبي وأختي أمينة..

لم يمهلني حتى أسترجع الإدراك. وفي الواقع فقد كنت مُحتلة الفكر بحياة حسام الجديدة. فأسعدني أن أطّلع على الضفة الأخرى للحياة. حيث حسام والأسرة الصغيرة التي لم أرها بعد.

دخلنا إلى الأوداية من جهة الغرب وعطفنا إلى الحارة القديمة المحفوفة بالدور البيضاء، كل الأشياء تتزيّن بالزمن الغابر. الأبواب المقوسة المعقوفة من الأعلى بأشكال انسيابية بديعة والنوافذ الخشبية الضيقة. والجدران البيضاء القصيرة التي رُصّت بلا هندسة خالقة بذلك دروباً ضيقة - وأخرى متوسطة العرض- منعرجة. والأرض المفتوشة بالحجارة المتعددة الأشكال ولكنها تشي كلها بالقدم. أين منك حسان وأجواؤه الهجينة!؟ وانتهينا إلى ساحة واسعة تطل من علو شاهق على المحيط الأطلسي. تجلّى البحر في جلاله الأبدي، وبدت سلا بأطرافها الجاثمة على أعتاب مَصَبّ أبي رقراق من الجنوب. والشاطئ البحري من الغرب. أي جمال للحياة على هذه الأعتاب!؟ وأوقفني حسام أمام باب خشبي قصير مطرز بقطع النحاس المستدير.

- وصلنا.. استعدي..

وطرق الباب. أطلّ علينا وجه فتاة من وراء الخشب المنقوش بالسنين. واستقبلتنا ببساطة وهدوء وترحاب إلى الداخل. فناء مربع الشكل ينفتح على الفضاء بواسطة فوهة منتظمة مربعة واسعة في السقف. أختي أمينة، سمعته يهمس لي وهي تسبقنا إلى الوسط.

- أبي.. أبي، تعال لاستقبال ضيفتنا الكبيرة.

وجاء الصوت الأجش الدافئ من أقصى الحجرة التي في جهة اليمين.

- من يا أمينة. هل هناك أحد مع أخيك؟!

- أجل يا أبي، وصل ومعه رُبا..!

كيف عرفت أمينة اسمي. أواه لعله حكى لهم عن جرائر الماضي! وغزتني ببرودة قارسة حتى الأعماق. لم يلبث الأب الطيب أن ظهر أمامنا جميعاً من باب الحجرة، اقترب مني بمودة واضحة لكنها ساكنة، راسماً على وجهه المجعد ابتسامة الرضى بدتْ منه أسنان نضيدة بيضاء:

- أهلاً.. أهلاً يا بنتي. يوم كبير.. يوم كبير..

- أهلاً يا عمي. كيف أنتم؟

- نحمد الله على الصحة وراحة البال..

كنت أتأمل هذا الأب الطيب وقد تقدمت به السن ولكنه لا يزال يتمتع بصحة وافرة. أما الكبر فقد بدا في تقاسيم الوجه وهاتين اليدين. فضلاً عن الشيب الرقراق على الرأس.

- في الحقيقة يا عمي كنت أتمنى هذه الزيارة منذ زمان. ولكن حساماً لم يساعدني..

نظرت إليه وقد اعتصم بالصمت منذ دخولنا إلى البيت. إلا ابتسامة متوارية، وصاحت به أمينة التي كانت تشد على يدي بصدق:

- لا، لا يا حسام هذا من الأخطاء التي لا أغفرها لك..

- في الحقيقة كنت أود ذلك أيضاً.

وضحكنا من الأعماق كأننا تعارفنا منذ أقدم العصور في حين قاطعنا الأب مرحِّباً:

- ادخلوا أولاً للجلوس. ثم يكون الحساب.

مرة أخرى تعالى الضحك لا لشيء سوى أننا سعداء باللقاء ونادى الأب عالياً بصوته الأجش:

- زهرة.. أين أنت يا زهرة؟

والتفتَ إلى أمينة متسائلاً باهتمام:

- أين أمك يا أمينة؟

- لقد ذهبت إلى السوق يا أبي..

- ولكنني اشتريت الغذاء..

- لا بل نسيتَ بعض الأشياء..

أجابته أمينة ضاحكة وهي تجلسني على الأرض المفروشة ببساط صوفي سميك. وجلس الأب بالقرب من حسام متوجهاً إليّ بالكلام:

- هذه أمينة ابنتي. تابعة لأمها في كل شيءٍ..

وضحك عالياً مُعقباً على قهقهاتنا. ثم تابع بابتسام:

- ولكن أم حسام.. كانت رحمها الله صعبة المزاج..

- يا أبي اذكروا موتاكم بخير..

بادره الأب مبتسماً:

- الله يرحمها. فهي التي أبعدتك عني على كل حال...

كانت هذه الأخبار جديدة على رُبا كل الجدّة أحسستُ إزاءها أنني أنفتح على فضاء واسع جديد.

- إن الله غفورٌ رحيم يا أبت...

- أجل يا بني. إن الله غفورٌ رحيم..

أجاب الأب بتسليم هادئ. ثم التفت إليَّ:

- وكيف حال الوالد والوالدة؟

- بخير يا عمي. ولكنهم يسألون عن حسام.

- لقد ربيتم ولدي يا رُبا. فهو ابنهما أيضاً..

- أجل يا عمي. وهو أخي أيضاً..

نظر حسام إليّ طويلاً دون أن ينبس بحرف، في حين انسحبت أمينة وهي تمسح اندهاشي بابتساماتها الصادقة.. أما الأب الطيب فقد أمّن على كلامي الأخير بامتنان. ثم التفت حوله كأنه يفتقد شيئاً ما.

- أمينة، أين أنت يا أمينة. على الأقل كأس من الشاي..

- هذا ما أفعله يا أبي.

جاءنا صوت أمينة من الخارج. وحينما وضعتْ الصينية الصفراء أمامي قالتْ لي بلهجة ودودة ذات مغزى:

- أرجو أن يُعجبك شايُنا..

وفهمت ما كانت تقصده أمينة - فبادرتُها كأنني أود التبرؤ من شيء معين:

- لا. لا تقولي يا أختي هذا الكلام. أنا واحدة منكم..

كان الأب في هذه اللحظات قد شرع في ملء الكؤوس بالشاي. وقلت لنفسي ما أبسط العيش في هذا المكان! كل ما يحيط بك يشرك بالصدق الذي ولّى. ورددت في الأعماق وأنا أكثر الكائنات حباً للبقاء: اعلمي يا رُبا أن الحياة تتقدس حين نتخلص من أورام المساحيق...

* * *

كتدفق المياه الرجراجة من ينابيعها الصافية البكر، انسابتْ بيننا الأحاديث بلا هدف، مرة أخرى تحدث الأب عن رحمة القدير والصحة وراحة البال. وغاص كثيراً في كتاب الذكريات. تحدثت أمينة عن الله والناس. أما أخي حسام فقد عاد بي مرة أخرى إلى العهود الخوالي. أيام مارتيل العامرة بالحرارة والرغبة. وهل يمكن أن تُنسى مارتيل؟ أعاد إليّ طعم الحديث عن العدل الاجتماعي ولكنه تكلم أيضاً عن الحياة والدراسة والمستقبل. قلتُ له وقد تخلّصتُ من عقدة الفارق، إن الأهم من الدراسة أن نفهم معناها. وأمّن على قولي ذلك مبتسماً من فلسفتي الجديدة في الأشياء. ولكنه تساءل بجدية عن سبب ابتعادي عن الأدب الفرنسي، وأجبته بزهو وامتنان حقيقيين:

- لقد أصبحتُ أؤمن بالتغيير الجذري..

سألتني أمينة ضاحكة:

- لم؟ هل انتقلت إلى قسم جراحة الدماغ؟..

أجابها حسام:

- بل اطمئني. إنها لا تحب الطب من الأساس.

تجاوبنا بالسرور بيد أني استدركت قائلة:

- أقصد أنني أؤمن بالتغيير بغضّ النظر عن الهوية..

- لا قيمة لأي تغيير بدون هوية..

ها هو حسام ينكأ جراحاً، هي نفسها تُصرُّ على البقاء. ولكن من الخير ألا تندمل الجراح، فلن أجد كالألم خانقاً للتذكرة. وأجبْتُ عن حسام بأن الاختيار صعب، ومغامرته غير مأمونة الجانب، فطمأن قلبي ضاحكاً بثقة:

- ذلك أن الاختيار هو مهمتنا في الحياة كلها..

وقاطعنا صوت الأب أخيراً وهو يقف بالباب:

- دعوني من أحاديثكم التي لا أفهم فيها شيئاً.. أنا ذاهب إلى الدكان...

المشهد السابع عشر

غاص أبو حسام بعيداً في دهاليز الذكرى. لعله كان يجد الراحة في البوح ولكن حتى البوح لا يخلو من آلام. وقال لي وقد جلسنا معاً داخل دكان الملابس إن حساماً هذا رأس مصائب. لذلك لم أخبره بكل التفاصيل، هل تودين سماعها يا رُبا؟ لا بل يجب أن تسمعي كل شيء. كي لا تقولي إنني قد تخليتُ عن ابني ذات يوم. قلت له باستنكار مؤدب:

- أبداً يا عمي لا تقل هذا..

عاد الصمت رسولاً بيننا، فوشى برغبتي في الاطلاع على قاع البحر. واندفع أبو حسام بلا تردد:

- كان ذلك منذ زمن بعيد، ولكني أراه كالأمس. هيهات أن تُنْسى أيام المتاعب! يومها يا رُبا كنتُ أطلب من الله في كل صلاة أن أفقد ذاكرتي لكي أنسى.. ولكن، يوم عثرتُ على ابني حسام مرة أخرى، غفرت للجميع مهما تكن معاناة القلب..

وصمتَ قليلاً، كأنه يستجمع القوة لنبش المقبرة من جديد. بدا أنه مُصرٌّ على ذلك فتابع بحماسة:

- تزوجتُ عائشة في ذلك الزمن الأجرد.. اعتمدنا على الله، ولكنها كانت تنظر إليَّ دوماً من الأعلى. كانت غير قانعة بمستوانا في العيش. خصوصاً أني كنت يومها مُجرد بائع متجول. وجاء حسام ابني

إلى الدنيا ليجد الحياة شاقة لا تحسن الترحاب. خصوصاً حينما كانت الحياة بيني وبين والدته تصل إلى نقطة اليأس.

والتفت إليّ فجأة:

- هل أنت معي يا رُبا؟

- أجل يا عمي. أنا معك بكل عقلي..

- كان كل يوم يمر بيننا يحفر لنفسه أخاديد وحفراً لا يمكن ردمها. لقد كانت عائشة رحمها الله. تعتبر زواجها مني خدمة أسدتها إليّ ويجب أن أرعاها ما حييت، وكانت الرعاية عندها تعني التخلي تماماً عن الكرامة والوجود. وهذا ما رفضته بالطبع!

وصَمَتَ كأنه يعالج ألماً قديماً عاد إليه بعد طول سكون. ثم تابع وهو ينظر إلى الأشياء الصامته في الدكان.

- كانت ضربة قاسية لي يوم أفقْتُ ذات صباح فلم أجدها. لم أنتظر، سافرتُ إلى البلد لأني كنت أعرف بحكم العادة قصدها حين تتقطع بيننا الجسور. لم يكن أبوها على قيد الحياة - الله يرحمه-. حين دخلتُ على والدتها المسكنية وجدتها طريحة الفراش. كانت تعاني من مرض مزمن لست أذكره الآن. تأملتْني بأسى واضح وخاطبتني بصوتها الذي لا أنساه:

- اقترب مني يا بني.

واقتربتُ منها بقلب أسيف ونفس ممزقة. كنت أريد أن أقول لها شيئاً. ولكنها قاطعتني بصوت ضعيف.

- اسمعني أنت يا بني.. أنا أعرف أن عائشة حمقاء. هكذا كانت وهكذا ستبقى، لا أمل في الإصلاح يا بني، لا أمل في الإصلاح...

وتعلقت بها كالغريق..

- وكيف العمل يا عمّة؟.. كيف؟ لقد تعبتُ.. تعبتُ..

- طلّقها يا بني.. صدقني لا حلّ سوى الطلاق...

- مستحيل يا عمة. إنها أم ولدي. مستحيل يا عمة..

- المستحيل هو أن تعيشا في هذا الجحيم إلى آخر العمر..

ضربتُ كفّاً بكفٍّ وأنا أقف أمام حياتي التي شب فيها الحريق المهُول. يا رب الأرضين! يا رب المخلوقين! في تلك الساعة احترقْتُ يا ابنتي.. طلَّقتُها وأنا غير مقتنع بما أفعل. أتعرفين يا رُبا ما هي البلد التي ننتمي إليها؟..

قلت له بإشفاق:

- لا يا عمي.. لا أعرف..

- إنها نفس البلد التي عشتما فيها - أنت وحسام - أيام الطفولة..

البلد الطافح بالمجد والسيادة والزيف، الذي ما لبث أن ولّى..

- أتقصد..؟..

- أجل. البلد الذي هجرتموه من أجل الرباط...

قال ذلك وتابع التذكر كأنما يأخذ مادته من الأيام...

- قررت أن أهجر البلد الذي هدم حياتي، وهشم كبريائي، وذلك مافعلت..

وذات يوم. رجعتُ إلى البلد من أجل رؤية ابني حسام، فقيل لي إنه مات.!. أجل هكذا قيل لي، أما عائشة فقد اكتشفت أنها تزوجت من الحاج السعداوي.. أصبحتْ فجأة - وضحك- ذات شأن ولا شفيع لها غير الجمال.

وتوقف عن السرد الحزين.. ثم تابع بدون أن يلتفت إليَّ:

- آه من النساء يا ابنتي، آه! آه من أعاجيبهن. ولكن الزمن هو الأحمق!!!.. وبكيْتُ على ابني الفقيد لا لأنه مات، ولكن لأني عرفت أنه هناك حيث لا أستطيع رؤيته. ولكن الله يعاقب الخاطئين. أتدرين كيف يا رُبا؟..

كنت مذهولة بسيل الأسرار الذي انصب فوق رأسي. لذلك تابع مندفعاً إلى النهاية:

- ما لبث الحاج أن تزوج مرة أخرى من ممرضة وفي ظروف غامضة أجمل من عائشة - كان يقصد أمي عزيزة- .

وشجعته بانشدادي الكامل نحوه:

- لم تتحمل عائشة وا أسفاه هذه الضربة، فلم تجد غير البحر تغيّب فيه عمرها الفاشل.

- انتحرت؟

- نعم. انتحرتْ. فقد هدمت حياتها الأولى من أجل متاع دنيوي قليل. فوجدت السراب في الانتظار..

عند هذا الحد. وأبو حسام لا يزال يلقي عليّ حكاياه كالسياط، غُصتُ في مهرجان أسود من الانفعالات. تذكّرتُ الطفل الحزين الوحيد. وا أسفاه! النظرات الشاردة، والمعاناة المستمرة، ظلم القربى، وإهمال القساة، استعلاء المرضى وانتقام الطغاة. تذكرت أيضاً حرب الناس وعطف الحسين. ووجدت نفسي أتساءل بلا معنى:

- وما مصير طفلك يا عمي؟!!

- كنت قد هجرت البلد هجراناً أبدياً طلباً للسلوى. وفوق ذلك فقد آمنت قسراً أن ابني قد مات. وكما قلت لك، احتسبتُه لله حتى جاءت اللحظة الفاصلة...

وصمت أبو حسام قليلاً، ثم غاص في البوح:

- بعد أكثر من عشرين سنة. بعد أن تعذّبتُ الدهر، وتزوجتُ وجاءت أمينة كالعزاء. بعد كل هذا العمر الطويل، التقيت بزينب مصادفة - ولا مصادفة هناك - لتقول لي إن ابنك على قيد الحياة!! قلت لها وأنا أبكي.: إني أعرف ذلك، ولكن ما دام الحاج السعداوي هو الذي أخذه فلا أمل في عودة ابني ولو بالقانون. قالت لي: بل اسمعني إن ابنك قد خرج من بيت السعداوي خروجاً لا عودة بعده. قلت لها كيف. فقالت لي كل الحكاية التي حدثت بينك وبين ابني...

ها هنا أحسستُ ببرودة رهيبة تقطع جسدي. رباه! ها هي ذي صورة الشيطان تتفضح أمام كل الخلق. لم فعلت هذا يا زينب؟ لم قلت الحقيقة؟!!! آه من طعم الفضيحة أمام أُناس تُكِنّ لهم الإجلال!!

وجاءني صوت «أبو حسام» يستفهمني باستعطاف:

- أحقاً أن حساماً اقترف فعلته النكراء؟!

وطوّح بي السؤال إلى أتون الجحيم. لا بل يجب أن يتبرأ الملاك وينفضح الشيطان:

- لا يا عمي، حسام بريء وأنا الجانية..

وانهزمت بعدها أمام قلبي فبكيت حتى توسل إليَّ الأب الطيب طويلاً..

رغم طغيان الندم والحزن بسبب استرجاع الخطايا، فقد كان اندهاشي يتسع في الوعي بحجم الزمن. زينب! من زينب، هذه؟ أتكون...؟ ولكن كيف؟... وسألته بعد صمت ليس بقصير.

- من زينب هذه يا عمي؟

- الخادمة التي عاشت معكم الدهر..

وغمغمت باستسلام:

- لم أعد أفهم.. لم أعد...

فقال لي الأب الطيب:

- أحياناً يا ابنتي. تصبح الحقيقة والأحاجي سواء...

وصمتَ قليلاً ثم استأنف ما قطعه البكاء:

- كان نبأ خروج ابني من بيت الحاج كافياً لقلب حياتي وحياة أسرتي كلها.. من ذلك اليوم خرجت من بيتي وأقسمتُ ألا أعود إليه إلا وحسام معي.. كانت زينب وأمينة ابنتي هما سندي الوحيد بعد

الله. لم يكن لدينا من أمل إلا كلية الطب. كنّا نقضي النهار كله نطوف حولها. أما بالليل، فكانت زينب وأمينة تعودان إلى البيت. أما أنا فقد كنت أبيت حتى الليل هناك.

ندت عني شهقة فزعة فالتفتَ إليَّ:

- لا تستغربي يا رُبا.. إنه ابني.. أجل إنه ابني...

هذا صنف جديد من الأبوة. وماذا بعد أيتها الأيام؟!

- وذات مساء، كانت زينب وأمينة تقفان معي قبيل الانصراف. كنت ساعتها أبكي وكانت أمينة أيضاً تبكي معي. ولكنها كانت تصبرني قائلة: لا تحزن يا أبت إن الله معنا.. لا تحزن يا أبت إن بعد العسر يسراً.. أتدرين يا رُبا ماذا حدث؟! التفتُّ إليها في لحظة ضعف بعصبية قائلاً:

- أين هو هذا اليسر.. أين.. أين؟!

فقاطعتني أمينة بانزعاج:

- لا تقل هذا يا أبت.. أتريد السقوط في الكفر؟!

- أستغفر الله يا ابنتي.. ولكن الانتظار طال..

- لسنا وحدنا يا أبت.. الله معنا.. الله معنا..

وقلت لها باستسلام حزين:

- أجل يا ابنتي. إن الله معنا.. إن الله معنا..

في هذه اللحظة التي لا أنساها، هذه اللحظة التي لا يصدقها العقل ولكن يسجد أمامها القلب.

في هذه اللحظة ارتطم بسمعي صوت حبيب:

- خالتي زينب.. خالتي زينب. ماذا تفعلين هنا؟!

التفتُّ فإذا زينب مشدوهة أمام الرجل الغريب، غاصت فيه كأنها لا تريد العودة إلينا وقال لي القلب أشياء كانت ساعتها غامضة ولكن حنونة كالبشرى.. أحسست أن هذا الشاب الذي يقف أمامي الآن هو.. هو.. لا.. لا.. يارب! هذا أكبر من الاحتمال! لو صدَّقت واستحال الأمل إلى سراب، ماذا سيقع؟ إنه الجنون.. يا رب السماوات والأرض.. يا رب إني ضعيف فانتصر...

- هنا ندّتْ عن زينب حشرجة كأنها عائدة من الإغماء..

- حسام..!!

وندت عنا - أنا وأمينة - حشرجة أقوى..

- من؟ حسام؟!

لم يكن لدي الوقت للتفكير. امتدتْ يداي بأمْرٍ من الأعماق لا مَرَدَّ له. شدّتا على ذراعيه ثم ماتتا عليه. هذا إذن هو الغائب الحبيب. هذا هو الابن الغالي. هذا هو الولد الذي اختطفته مني أيادي الأنانية والجشع والطغيان.. كانت زينب تستعطفني بأشياء لم أكن أسمعها. ولكني كنت عاجزاً عن التركيز كان حزن السنوات وانتظار الليالي قد تجمعا في قوة واحدة، واحتّلت قلبي، وعقدت لساني. وجمدت بصري في شخصه الحبيب الغالي. هذا هو حسام! أحسستُ فجأة أنني أحب كل ذرة فيه. أن هاتين العينين السوداويين هما مني.. أن هذا الوجه

الأسمر مني.. هذه القامة الفارعة مني.. هذه القسمات مني بعد ما أخذت الأيام قسمات شبابي.. إنه أنا.. إنه أنا..

وارتميتُ فإذا بنا نلتقي في عناق عنيف. عنيف. عنيف..

- ابني.. ابني.. حبيبي..

كانت هذه النداءات الخاشعة تصل إلى سمعي متمازجة مع آهات أخرى:

- أبي.. أبي.. أخي.. أخي الحبيب. أختي الغالية.. أبي.. أخي..

آه من اللقاء! لقد كنا تحولنا إلى كتلة مشتعلة من الروابط.. استحالت الأبوة والأخوة أمشاجاً متراصة حيّة في ظل الفرحة الكاسحة.. حين أفقْتُ من ذهولي. وجدت نفسي معانقاً من طرف أمينة وحسام..أخيراً.. أخيراً يا رب..

كانت زينب في هذه الساعة تبكي بصوْتٍ مسموع. وكانت تلتفت إلينا جميعاً. مرة إليَّ. مرة إلى أمينة. ومرة إلى حسام.. كانت تحارب فلول اللاتصديق في عيوننا..

- أجل يا حسام، هذا أبوك..أبوك!

- أجل يا أمينة هذا أخوك.. أخوك!

- وأنت.. أيها الرجل الطيب. هذا ابنك حسام.. هذا ابنك المسكين..

المشهد الثامن عشر

ما أغرب لون الأشياء حين تنكشف لك الحقائق جملة كأنها النشور! تتبدّى ساخرة غاية السخرية، طريفة غاية الطرافة. تعلن لك افتتاح عهد لا قبل للقلب به من التبشير أو النذير. هذا هو الصدق وهذا هو سلطانه الأبدي.. بين همود شآبيب البوح وانفجار مكامن النفس، تذكرت جيداً وبوضوح كل خلايا الزمن الغابر، ذكرتُ الحب المزيف والرفض النبيل. وحتى الانتقام التتريّ العنيد. وذكرت أيضاً عذاب الأيام وغفران الكريم وحتى كشف الذات. ما أحلاه كشف الذات! بكيتُ وقلت له وما فائدة ذلك الضنك الآتي من الجحيم. فقهقه عالياً ونحن نؤوب إلى البيت. قال لي باعتبار العارفين ألا تعرفين انتقام النساء؟! سقط البصر على الأرض فكان شظايا...

رنوتُ جيداً إلى حسام كأني أراه لأول مرة. كأني أبحث فيه عن تقاسيم السنين الذواهب. وجدتُها ماثلة في عينيه أكثر من أي وقت مضى.. لم أكن بحاجة إلى مزيد. فعندي الآن ما يكفي كي أحيط بقاع البحر أو قمة الجبل العالي.. لم تستطع عيناي طوال الوقت مفارقة وجهه الغالي.. ما أنبله من إنسان! حين غابت الشمس وصدع المؤذن بالنداء هرع الجميع إلى الصلاة. وجدت نفسي وحيدة. فهرعت معهم أتقي بذلك شر المجهول. سارعتُ إلى الوقوف بين زهرة وأمينة بحبور غامض غير مفهوم، لا تفسير له عندي اليوم سوى الرغبة المحروقة في إعادة الانتماء إلى الحياة.. وقال البحر:

- سمع الله لمن حمده.

فردد الجميع إلا أنا:

- ربنا ولك الحمد..

ولكني سجدت مع الساجدين..

* * *

كنت سعيدة حقاً. حين سلّمت على والد حسام وللاّ زهرة. ودعتهُما وأنا أرسم الخُطا بين حسام وأمينة. بين شخصين تشع من رفقتهما السكينة بلا حساب. اكتفيتُ بالصمت كي أفسح المجال للأعماق كي تتكلم. كم هو خطير هذا المنعطف الجديد!! لقد أصابتني روح جديدة فرضيّتُ عن الحياة. ما أعذبه الرضى عن الحياة! وما أبشع عذاب السخط! أحسست أخيراً أنني بالفعل أنتمي إلى الحياة. انتماءً لذيذاً وإن لم يخلُ من قلق دفين. رغم ما عرفته حياتي الماضية من محطات الانتصار على النفس. ربما لأن حساماً يمثل بالنسبة إليَّ - بدون أن أدري - مركز الحركة في اللاشعور...

لا يزال طعم الصلاة عالقاً بالروح. شعور رحيم ولكنه غامض. إحساس يسمنا بشيء عزيز كالخلاص فنغرق في سماوات الأحلام المقدسة حتى ننفصل عن غلظة الواقع الثقيل. جميلة تلك الأحلام ولكن ما أقساها! أجل: ما أقساها حين تتجلّى لنا - نحن المخلوقات الضعيفة - وهي تتوارى في إصرار وسكون وراء أردية المستحيل. تمنّيّتُ - وأنا رهينة العجز - ألا أحلم! فمثل تلك الأحلام المقدسة تمطرنا بالسعادة ولكن بلا شفقة! تمطرنا بطوفان لا نحتمله من

السعادة هكذا ينقلب الشعور اللذيذ إلى معاناة! ولكن ما باليد حيلة. فأحياناً تحتلُّنا الأحلام احتلالاً وتستذل خيالنا بالقهر، وتُلقِّنّنا - قسراً - تباشير الأيام الحبيبة إلى القلب. الأيام التي أصبح القلب والكيان يراها اليوم - ولكنه لا يستطيع إليها صعوداً..

ولكن ربّاه! ما باله هذا القلب الأحمق المجنون؟! ما له يقف ضدي مع فلول الغزاة؟

إنه ليتعلق بها كما يتعلق الغريب المنفي المغترب بقافلة - يظن أنها- راحلة نحو الأحبة الغابرين. وانتزعتني أمينة من طبقات نفسي المشتعلة:

- ربُا.. أين أنت؟... يبدو أن أبي أتعبك اليوم بكلامه الذي لا ينتهي..

- ماذا؟..آه.. أجل.. في الواقع إن أحاديثه لطيفة للغاية..

وقال حسام ضاحكاً:

- لقد رأينا رغبتك في الانطلاق معه. فتركناك وشأنك..

تمتمتُ بانشراح:

- خيراً فعلتم..

وتدخلتِ أمينة:

- بعد اليوم، لا عذر لك، فها قد عرفت البيت.

التفتُّ إلى حسام بلا شعور. وأجبتُ أمينة:

- أجل، لا عذر لي بعد اليوم..

واخترقنا شارع محمد الخامس المهتز بالحركة. تكلّلتْ سماواته بالأنوار. وازدانت أرضيته بالخلق:

أشباح مُلوّنة تسير في كل الاتجاهات. ثم عطفنا يساراً حيث المسرح الكبير العائم في أضوائه الخافتة. كانت عندي رغبه أكيدة في أن يطول بنا السير. كأنك أيها القلب تحمل ثأراً بينك وبين الواقع الذي تحياه. لكن لا ضير. فقدرُك اليوم أن تتطلّع إلى المستحيل ولو كان في ذلك مخاطرة تهدد الحياة. يجب أن أعشق الحلم كي أنتزع داء الشلل الساكن ظلماً في طبقات نفسي يجب أن أمتهن عشق الرحلة نحو الأعلى، ذلك أنه طوق النجاة من الرقابة والزحف على الرمال. إن الحلم أيُها القلب العطشان هو مشروعنا في زمان التحجُّر على حجارة الواقع. إنه درعنا الواقي في عصر الاستسلام.

ليكن يومك يا قلبي فرصة سانحة كي تتعلم المشي من جديد. ومرة أخرى انتزعتني أمينة من طبقات نفسي المشتعلة. التفتُّ حولي فطالعني جسد الصومعة ضارباً في كبد الظلام، هذه المرة كان يدعوني إلى بناء كيان كهذا البناء. وداعبتْني النسائم باردة فانتعشتُ. تعانق انتعاش الجسد مع انتعاش الروح. فانطلقتِ ابتسامة واسعة من القلب. وانعكستْ أصداؤها على تضاريس الشفتين الجافتين. كان الموقف يحدثنا بالفراق. أما النفس فكانت تُحدِّثني بطلب آخر ولكن هيهات! ومع ذلك وجدتها توجه إليه تباشير الطلب:

- ألن تدخل معي إلى البيت؟

- سيكون يا رُبا. ولكن ليس اليوم..

سكتُّ قليلاً فقد جرحني الحبيب.

- هل أطمع في المستقبل؟

- بكل تأكيد..

وقالت أمينة:

- سأدفعه إلى الزيارة..

وقالت النفس: أو الإقامة الدائمة.

- أنا فعلاً بحاجة إليكما..

- ونحن أيضاً يا رُبا..

- والآن. السلام عليكم..

وجدت نفسي لأول مرة. أجد الشجاعة الكافية لأرد السلام بالمثل:

- وعليكم السلام...

لم أتزحزح من مكاني فبادرني حسام باسماً بهدوء:

- إذن سنبقى هنا حتى تدخلي البيت!..

- بل تذهبان أولاً..

ضحكتْ أمينة من القلب، وتحرّك حسام فغادر المكان وغاب الشبحان رويداً في الظلام. أما القلب فسمعته يقول بصراحة: لا يجرمنّكِ شنآن الواقع ألا تديني للآمال بالولاء، فعلى بُعد قصير فقط، يقف الغد منتظراً زاخراً بالوعود..

* * *

كانت رائحة المسك في المكان وكان النسيم الفجري البارد يُرَجِّع ألحانها المسْكِرة. وعانقتُ كلَّ الأحياء والأشياء في الحديقة حتى ضحك الفضاء. تلألأت النجوم وضّاحة الثغر وبادلتُها نفس السعادة ثم دخلتُ إلى البيت، ولكن كريمة أختي اعترضتْ طريقي في الردهة:

- أين كنت أيتها الهاربة؟ ضيوف كثيرون ينتظرونك منذ ساعة..

- من هؤلاء؟

- كلّهم...!

وضحكتْ...

- جلال وأروى وشمس وإلياس..

واندهشتُ لهذا الجمع ولكن لا عجب بعد اليوم. دخلتُ عليهم فأشرقتِ الوجوه. وصافحتهم واحداً واحداً. ثم انحشرنا في ضروب الأحاديث.

- زيارة مفاجئة. أليس كذلك؟

قالت شمس هذا وهي تجلس بعد العناق.

- ولو.. فهي زيارة عزيزة..

- جئنا. بعد أن قررت هجر الأصدقاء..

- أهلاً بكم جميعاً يا أروى..

وحضرتْ إلى المخيِّلة كل مراتع اللهو والأنس القديم. وداعبتني ذكريات المعاناة بخشونة فعدت إلى مراتع الحاضر.

- وجئنا نقدم اعتذاراً طال انتظاره..

- قبلتُ الاعتذار..

وقال إلياس:

- وجئنا ندعوك إلى النادي مرة أخرى..

جَفَلْتُ كالملدوغ ونظرتُ إليه باستهانة فصفعتُه النظرات. استدرك جلال:

- بل إلى حفل الخطوبة..

عاد الهدوء إلى القلب، وتساءلتُ باندهاش:

- خطوبة؟!!

- نعم، خطوبتنا: أنا وأروى..

- متى حدث ذلك؟

تساءلتُ مرة أخرى باندهاش أكبر.. فقال جلال معلقاً وضاحكاً في نفس الوقت:

- وهل أنت فوق الأرض حتى تعلمي؟!..

- المهم هو متى يكون الحفل؟.

- قريباً جداً، في رأس السنة القادمة..

لم أجد غير الضحك فسكبْتُه على الكيان، عجبْتُ للسرعة التي يمشي بها إيقاع الزمن.

وقالت لي شمس ضاحكة:

- لا بد أنك تضحكين من هذه السرعة..

- بل للأيام وكيف تتغير..

- أجل إن الأيام تتغير..

وخاطبني جلال:

- حتى أنت يا رُبا تغيرت..

رنوتُ إليه طويلاً بامتنان. استطاع وضع اليد على الجرح الذي يوشك أن يلتئم. البركة في الآلام فهي خير عامل للتعرية. وعقبتُ عليه في سكون:

كل شيء يجب أن يتغير..

- لكن بشرط، ألا تهجرينا..

قلتُ لإلياس:

- الهجرة شرط التغيير..

- هذا جنون لا مبرر له..

ضحكت بهدوء حزين وقلت له:

- لا يا إلياس. لم أهجركم أنتم بل هجرت حياتي..

قهقه إلياس كعادته. ثم أردف قائلاً:

- لا عليك. سينتصر الحنين ثم تطلعين علينا في نادي النجمة كأن شيئاً لم يكن..

ولم أجب إلياس السادر العنيد. فقد كان الصمت الذي استولى كالقرصان على المكان، هو حامل الجواب. ضحكنا طويلاً على أروى

وجلال، وقُلنا لهما لا بد أنكما من أنصار تحديد النسل، بعد أن هدأت عاصفة الضحك قال جلال: أريد طفلة في البداية بشرط أن توافق أروى على تسميتها رُبا. قالت أروى موافقة. ونظرت إليهما بامتنان. ولكن إلياس خاطبه بنبرته المستهترة وهو يشير إليه ضاغطاً على مخارج الحروف:

- أيها اللص المحترف..

وعاودنا عاصفة الضحك في حين عاد جلال إلى زرع الهدوء في المكان. نظر إليَّ مليّاً ثم قال:

- ليكن...

* * *

وحين لاحظتْ أمي عزيزة كثرة غيابي عن البيت، لم يكن بد من الاعتراف.. ربما كان من الأوفق ألا أخبرها بشيء. ولكن لا قدرة لي على مقاومة التيار، إن إيقاع الهدم والبناء قائم على قدم وساق في رحاب الصدر فلا قدرة لي على الكتمان. أغرقت نفسي في صمت طويل ثم خرجت إلى شاطئ الكلام..

- لقد عثرت على حسام يا أمي..

بدا أن أمي عزيزة لم تصدق. فاتسعت عيناها كبوابة كبرى.

- حسام؟!

- أجل حسام..

اقتربت مني وأنا أعرف أن الخبر قد طوقها كالقضاء. أغرقت نظراتي في عينيها الخضراوين، قلت لها بلغة الصمت كلنا شاركنا في

تلك المذبحة أو المهزلة. كانت عيناها ترسمان طقوس الخيبة والاستسلام. وأخيراً تكلّم منها اللسان:

- وكيف هو؟

- بخير.. في السنة الأخيرة من دراسته الطويلة..

وطوقها الارتباك بعنف، فقاومتْه بعبث تجلّى في حركة يديها. واضطراب نفسيتها..

- متى عثرت عليه؟

- منذ زمن طويل..

قالت باستنكار مزيف:

- منذ زمن طويل ولم..

- لا داعي للتمثيل..

قاطعتُها بقساوة. وساد بيننا صمت ثقيل كالظلم. كان كل شيء - رغم ذلك - يمشي بسرعة كأنها الآزفة. ولم أمهلها حتى تسترد بعض الإدراك:

- إنه يعيش الآن مع أبيه وأخته وزوجة أبيه..

وبدا أن كلماتي القاسية تتنزل عليها كلطمات بشعة فتنهار الأصباغ من الوجه. ازددت حنقاً عليها كأنني القدر يعجّل بالعقاب:

- لماذا أخفيتم الحقيقة يا أمي؟

وأفاقت من الإغماء:

- حقيقة؟! أية حقيقة؟!

- حقيقة حسام.. لماذا لم تسلموه لأبيه؟ لماذا عذبتم - أقصد عذّبنا - كل هذه الأنفس يا أمي؟

لماذا؟ لماذا؟!..

كانت تريد قول شيء ما. لكن لم يكن بيدي فقد انهار سد الاحتمال الأخير.. أمطرتها بوابل من الإدانات والعذاب.. عريّتُ لها وجوهنا الشائهة التي توارت طويلاً وراء سطوة مجد زائف، وذكّرتُها بالبدايات البعيدة، وكيف كانت. ذكّرتها بالأنانية وعبادة الذات. ذكّرتها بالقسوة والرغبة في التعذيب. وذكّرتها بالطفل الحبيب وما قاساه على أيدينا جميعاً من ضنك وشقاء..

وألقيتُ عليها قنابلي البشعة الأخيرة...

- فبأي ذنبٍ كان ذلك الشقاء؟ أفأجيبك يا أمي عزيزة!! لأننا من أسرة الحاج السعداوي الذي لا يعجزه شيء. السطوة والمجد الزائف وبريق الحياة الهجينة كل ذلك جعلنا قطيعاً من العميان. ولكن ها هو ذا حسام، وهاهم أولاء نحن...

كنت أود أن لا أتوقف عن الكلام. ففي القلب صفحات بعدد السنين. وها قد انهار السد الذي قاوم الأيام والليالي. ولكنني رغم ذلك أحسست بطعم راحة جديدة بعد تعب طويل.. أما هي فقد بدت ككائن مهدوم. انسحبَت في صمت وبكاؤها الجريح يصلني تباعاً كرسائل مستعجلة من المجهول..

أما أبي فقد كان الوقع عليه أكثر فظاعة. أراد أن يبدو أمامي أكثر تماسكاً. يا للإنسان كيف يستطيع مقاومة مشاعر بحجم الطوفان؟ أما أنا فقد كانت لي رغبة عارمة في الانتقام لحسام حتى من نفسي..

المشهد التاسع عشر

الضباب رداءٌ لذيذٌ وخزّان أحلام. والسحاب المركوم بساط رمادي الوجه يخفي الأسرار. والنهار خيال كسول يتثاءب بفعل وجوم الشتاء. ليس الشتاء في الرباط كفصل الصيف. وليس الزمان كالزمان. أما الحياة والحركة على تخوم هيلتون فتموتان ليتشكل الحاضر خلْقاً آخر. وتتسلطن تباشير الطبيعة على المكان. أشجار الكليط المتعالي في الفضاء كالفرسان. والأرض المنبسطة كالأيام. والهواء المخضب بالرطوبة والحنان. والجو الناطق بالسكينة إلا من أزيز السيارات التي تمر أحياناً منطلقة في الطريق السيّار في اتجاه مستشفى ابن سينا أو العكس. تخيلت فاطمة من جديد.

الفتاة المشرقة الدافئة الطافحة بالأمومة والصفاء. رأيت موكب صداقة حقيقية غالية وهو يتهادى مقترباً في ثنايا الأفق. وداعبني الرضى إلى منتهاه. فتاة كفاطمة لا يمكن أن تُنسى. ويوم كيوم اللقاء الأول جدير بالبقاء كأعز الأيام. كأن الأيام تستعد لاستقبال يوم جديد، أو مولود جديد. وكأن الزمن يتأهب لشيء ما. لذلك تتسارع اللحظات في جمع خيوط كانت متفرقة. بالأمس حسام وأمينة. وبعدها تتجلّى فاطمة كوعد سعيد، ومن قبل كان جلال وأروى غارقين في بركان العبث، فكيف دخلتْ عليهما أسطورة الزواج؟!

وقبل ذلك بكثير تحطّم بنْيان الزيف وتشقق العمر عن عذاب سعيد، ولكن آمنت بأن كل شيء يصيبه التغيير حتى الحجارة الصلدة

تهدمها عوامل الحفر ولو بعد حين. ولكن! هل لقانون التغيير غاية ينتهي إليها؟ أم أنه فضاء أحمق بلا حدود ولا أطراف؟ إن يكن بلا غاية فوجودنا غير موجود. وقداسة العذاب والمعاناة عبث مجنون يستحق الانتحار، ولكن هيهات! وقال الفكر المشتعل كيف نتجنب مخاطر هذا الفضاء؟ بل هل من الضروري أصلاً، أن نتفكر في وجود مخاطر؟ أم المطلوب أن نلقي بكينونتنا جملة بين يد ناموسه الأزلي يفعل بها ما يريد؟ قلت لنفسي قد أسأل فاطمة هذه الأسئلة أو مثلها، ولكن لنلتقِ أولاً ثم يكون للقاء بقية...

وتوقفّتُ أمام بوابة ابن سينا. حينما رأى البوّاب سيارتي البيضاء- أقصد سيارة أبي- هرع إلى تقديم الأجوبة المحتملة. اكتفيت بالسؤال، فقدم إليّ خدماته بلا تحفظ. جزاء تفضله ذاك. دسستُ في جيبه ورقة مالية فأجهش بالدعاء ولم يعقِّبْ. وبدا المستشفى الكبير كأنه يحتفظ بأسرار غير قابلة للبوح أو الإفشاء. من هنا تنطلق الحياة أو يزغرد الموت على الأحياء. وهنا قضى الزاهد الحبيب ثمانية أشهر يصارع الداء الوبيل. وهنا شهد العذابُ الجليل انهياري حتى أشرفتُ على الهلاك الداخلي، ولكن ها هنا أيضاً ظفرتُ بصداقة حقيقية تبشر بكل ما لا يشترى أو يباع. فالمغفرة للأيام، والشكر للعذاب. والتسليم لهذا المستشفى الذي يحتضن تحت أجنحته الموت والحياة لشتى المعاني والمشاعر والكيانات.

وتأملتُ فاطمة وهي تقتربُ مني مزدانة بابتسامتها المشرقة. لم أنس بعد عبوس الوجوه التي مرّتْ بجانبي. ولكن ها هي ذي البسمة

الصـافيـة تطغى على الخيـال. لوّحتْ لي بيـديها من قبل أن تصل. كان العناق حـاراً من الأعـمـاق. فـأنعِمْ بالـروابط حين لا تُلَطِّخـهـا أوزار المصـالح! وأنعم بكل شيء حين تخشع الأحـاسـيس بتـهـاويل الصـدق! شدّتْ على كتفي طويلاً وهي تتأملني بحنـان أمٍّ حقـيقيـة. كان الصـمت أنقى لغـة للتـعـبيـر وأحيـاناً يكون كذلك.. وأخيـراً تألق الكلام عن فم رقيق:

- كان ينبغي أن يكون البدء منـي..

- أحبّبتُ ألا أمهلك..

تأملتني مـشـرقـة المُحـيّـا من جـديد. وأخـذتني من يـدي إلـى الداخل..

- اليوم كان موعد زيارتي إليك..

قلت لها وأنا أقلِّدُ وعدها السابق:

- الجمعة بعد العصر إن شاء الله يا أختاه!

ضحكتْ من مداعبتي، فقلت لها بوداد:

- ها قد حفظتُ كلامك عن ظهر قلب..

- هذا لطف منك يا حبيبتي.

واستطردتْ:

- والآن كيف أنت يا أختاه..

- الحمدُ لله.. أحسن بكثير.

- عظيم. ألم أقل لك إن الله سبحانه كبير..

- أجل. كبير. كبير..

قليلاً صمتنا. ثم خاطبتني كأقرب الناس:

- لحظات، ثم نذهب إلى البيت..

- البيت؟!

- أجل ففي يوم الجمعة أخرج باكراً من أجل الصلاة..

ولم أفهم. فهربت إلى ناحية أخرى:

- أين تقيمين؟

- قريبة. في حي الفتح..

ضحكنا لأن حي الفتح ليس قريباً. ولكنها استدركتُ ولمّا ينضب معين الضحك.

- زوجي سيقرب لنا المسافة..

واضطربتُ قليلاً. فقد كنت أعتقد - لسبب غير واضح- أن فاطمة غير متزوجة..

- هل تعملان معاً؟

- لا. فأحمد يعمل في الصحافة...

* * *

كيف يمكن لي أن أصف دُنيا فاطمة؟..

إنها بحق دُنيا من الرضى والنّعمى.. عالم بسيطٌ ولكنّه حميم. بلا مقدمات وجدتُ نفسي في قلب البيت. كان أحمد زوج فاطمة قد

نزل قبلنا من السيارة ولذلك وجدنا الباب مفتوحاً يوحي بالترحاب. وتأملت الأشياء في وسط هذا البيت فخاطبتني بلسان البساطة والنظافة والنظام. كان في الأجواء عبير زكي لم يسبق لي أن عرفت مثله. ملأتُ رئتي حتى الإشباع فانتعشتُ. داخلني سرور عجيب وارتياح حبيب. وقال الفكر إن شروط السعادة أبسط وأسهل مما يتصور الإنسان ولكن من أين يكون البدء؟ وخرجْتُ من حواراتي الداخلية على تساؤل فاطمة:

- هل أعجبك بيتي يا رُبا؟

- جداً. جداً..

سارعت بالجواب.

- إذن، فارتاحي فلن يزعجك أحد..

- وأنت؟..

- سأعود حالاً..

وعُدّتُ أتعقب بصري المهاجر بين الأشياء المُطمئنة في جنبات البيت. كأنها أو كأنني أدعوها إلى عناق حارٍّ وقال الفكر إن المعنى كامن في الإنسان لا في الأشياء. وقال أيضاً إن فاطمة هي الماثلة قطعاً في سكينة المكان. الجدران البيضاء الأنيقة. والستائر الزرقاء السماوية الرائعة. وهذا البساط الأزرق الفاتح. الأرائك الصوفية المتشحة بزرقتها الزاهية الألوان الرقراقة بالبهجة. وتأملتُ طويلاً لوحة كتب عليها اسم الله...

* * *

لم؟ وكيف؟ شيء ما في بيت فاطمة ملأني بالطمأنينة والحياة. تخيّلت أن الزمان داخل هذه الجدران غير خاضع لقانون الحياة هناك في الخارج! وقلتُ لفاطمة وأنا أرفع فنجان الحليب:

- كيف تجمعين بين الدراسة والعمل والبيت؟!

ضحكتْ ملء القلب وقالت:

- كما تجمعين أنت بين الرقة والجمال والبراءة..

بدا أنني لم أفهم. وأعربتُ عن ذلك بابتساماتي المندهشة. فتابعتْ:

- لا صعب مع الرغبة الحقيقية. وأحمد يساعدني في كل شيء..

- يساعدك في تنظيم البيت؟!

- وفي المطبخ وغسل الأواني وحتى الثياب أحياناً.

قلت ضاحكة:

- مدهش!

قالت فاطمة بنبرتها الودودة:

- ألم أقل لك؟ إنك رقيقة وبريئة في نفس الوقت.

- لا أنا معجبة بحق بروعة حياتك..

أجابتني وهي تملأ فنجاني مرة أخرى:

- من يجتمع في ظل الله لا يخاف ضنكاً ولا هضماً..

قلت مؤمِّنةً مع أني لم أدرك كافة الأبعاد:

- صدقت يا أختاه..

مرة أخرى تركنا الصمت يتدفق بيننا كغدير جميل. تأملت كلامها فاحْتَرْتُ بين طرق شتىّ وقال الفكر تلك لغة صعبة ولكنها قريبة من القلب. أحياناً كثيرة. يقول العقل شتّان بين الواقع والمثال. ولكن ها هو ذا القلب يتكلم: بالمثال نصنع واقعنا المرغوب. الجفاف حقيقة في الحياة والحياة الحقة زاخرة في دنيا فاطمة فأي الواقعين أصدق؟!

هل كان بالإمكان نسيان هذا اليوم؟ ولكن كيف؟ المجهول كان يحفر لنفسه أخاديد في الذاكرة والوجدان كان يُدَبِّر انقلاباً دموياً على نظام أفلاك طالت فوضاها.. فعلى بعد شهرين فقط من سفر هذا اليوم السعيد إلى سجل الأزل تتوجت حياتي بحدثين بوزن الجبال الرواسي.. حدثين رجّحا كفّة سلخ الجلد على طلائه بالمساحيق. حدثين منحاني القدرة الكافية لإنقاذ الذات طوعاً أو كرهاً، من لعبة الطواحين الرهيبة، لعبة الدوران في نفس المكان بلا هدف.. أيها الأفق الذي طال انتظاره، أخيراً برزْتَ في حُلّتك الصعبة ولكن كنتُ على حافة الكون!..

المشهد العشرون

لقد تعاقبت دقّات الجرس في إصرار وعنف وعناد حتى ارتاع الجمع وتبعثر الوجدان.

وتناثرت الأسئلة بفوضى وقلق واستقرت في العيون. لمن يقرع الجرس في هذه الساعة من الليل؟ فالشهر شهر الاستعداد للأفراح فهو آخر الأيام في السنة. ولا حديث سوى عن حفلات عيد الميلاد وبطاقات التهاني. وحتى القلوب تختزن تهاني لا حصر لها.

وتعاقبتْ دقات الجرس بنفس العناد لكن بشكل أعنف. لأول مرة تقفز أمي عزيزة إلى الباب واقتحم الفضاء الساكن صوت أجش صلد النبرات:

- نحن البوليس. نريد الحاج السعداوي.

وتدفق الرجال الثلاثة بلا استئذان. جاءت أمي وراءهم مرتاعة وصرختْ أختي كريمة صرخة الفزع، في حين لبث الضابط يرمقنا بنظرات متوجسة، وصاحت أمي به:

- من أنتم من فضلك؟ كيف تدخلون بيوت الناس بلا إذن؟..

وبادرها الضابط بصوت جاف:

- هل هذا بيت الحاج السعداوي؟

- نعم. هو ذا. ماذا هناك؟

وأشار الضابط إلى رجاله الغلاظ فتفرقوا بخفة السناجب في أنحاء البيت ثم جلس بهدوء لا يناسب حالة التوجس والارتياع الطاغي على الكيان. وتكلم الضابط بنفس الهدوء:

- جئنا للقبض على الحاج..

- نعم؟!...

فأردف الضابط بسخرية خفية:

- عفواً. أما سمعت؟! جئنا للقبض على الحاج..

وندّتْ عن كريمه شهقة تنم عن انكسار الإحساس في حين لبثتُ جامدةً أنتظر الباقي.

- لا بد أنكم أخطأتم العنوان..

وابتسم الضابط ثم وجه سؤاله لأمي برتابة:

- هل هذا بيت الحاج السعداوي؟!

- أجل هو..

- إذن لم نخطئ العنوان. أين هو؟..

فقالت أمي بنفاد صبر:

- غير موجود. لقد سافر إلى البلد..

- لقد طلبناه هناك فلم نجده..

فصاحت أمي بجفاء:

- ولكن ما الأمر يا سيدي الشرطي؟!

- عفواً، ضباط شرطة من فضلك..

- ليكن..

فأجاب وقد بدا ضائق الصدر بجفائها الأخير..

- الحاج مطلوب أمام العدالة..

- العدالة؟! ماذا تقول يا سيدي؟ زوجي رجل محترم فهو نائب برلماني معروف إن كنت لا تعلم.

- لا يهمنا البرلمان يا للاّ. نحن هنا من أجل القبض على الحاج..

- فليكن. ألا تعرفون القانون يا سيادة الضابط؟ إن للحاج حصانة برلمانية! فكيف تَقتحمُ بيته بهذه الطريقة؟

ضحك قليلاً ثم قال:

- تقصدين الحصانة المخدراتية؟!...

وانهارت أختي كريمة، فبكتْ بكاء عنيفاً وهي تُخفي وجهها في صدري المضطرب. ماذا يوشك أن يقع في هذا البيت؟ وأي ركن مرشحٍ للانهيار؟ في هذه اللحظات كان الرجال الغلاظ قد عادوا بلا شيء فالتفت إلينا الضابط ووجّه إلينا الكلام:

- الحاج مطلوب وأرجو ألاّ تسكتوا..

كانت أمي عزيزة تريد الهجوم بلسانها مرة أخرى، بيد أني اقتربت منه بأدب وأنا أتغيا الحيلولة بينهما.

صدّقنا يا سيدي الضابط نحن لا نعرف أين أبي. ونعتقد أنكم مخطئون..

تأملني قليلاً ثم خاطبني:

- أنت ابنته فيما أعتقد..

- أجل يا سيدي..

- إذن فيؤسفني أن أؤكد لكم أن الحاج السعداوي متورط في الانتماء إلى شبكة تجارية للكيف والحشيش..

دارت الدنيا بي وكنت أكثر المخلوقات ثباتاً.

- هذا غير معقول..

قال الضابط:

- هذا لا يهمنا يا آنسة نحن ننفذ الأوامر..

وانسحب الرجال ونحن نئن تحت وطأة الخبر الرهيب. لم نعد نعرف هل الأرض التي نقف عليها لا تزال نفس الأرض أم أنها أصيبتْ بالخراب. لقد أصيبتْ كافة الكائنات والتصورات بالإفلاس. أهي مُرّة إلى هذه الدرجة؟!! أجل فما أبشع طعم الحقائق حين تتكشف عن وجه شائه! كانت كريمة لا تزال تحت أنقاض الرعب، وأنا أحاول انتشالها بلا جدوى.. أما أمي عزيزة فقد انهارت صاغرة على أقرب كرسي إليها. ذُهلتْ ذهولاً مخيفاً فأضحتْ كالتمثال.

كأن الصاعقة نزلتْ فتركتنا شظايا كالهشيم. أو كأن الساعة قد أزِفتْ فنحن سكارى من الهول. ولم لا؟! لقد قامت قيامة بيتنا وجاء النشور. انتهى المجد والجاه والسيادة والكبرياء والسلطان. انتهى كل ذلك بجرة خطأ كأن الأقدار تسخر منا ما الجوهر وما القشور؟ ما الشعاع وما السراب بل ما معنى الإيمان؟ أجل يجب أن أبحث عن الإيمان.

أجل فهو المطمح الآن، وكل شيء هالك سوى الإيمان. ماذا يقول هذا الرجل المجنون؟ الحاج السعداوي؟!!

مستحيل!.. مستحيل..

الهزيع الأخير من الليل والصمت سلطان. القلق المشبوب وفلول الأرق تعتصم بالعيون.

لاشيء يستحق الاهتمام. والإفلاس هو مآل هذه القناعات. وها هو ذا العراءُ والفضائح تُتوّج حياة كان من المكن جداً أن تبقى لولا الجوع القتّال والقلب الأسود والأحلام المستحيلة وعشق السراب. أواه ما أقبح عشق السراب! لم نستطع الظفر بالنوم منذ اقتحام البوليس لبيت العنكبوت. ما أشدّ هوان بيوت العنكبوت! ولكن ما الأمر؟! ها هي ذي دقّات الجرس تُلحُّ علينا مرة أخرى فتؤلمنا كدقات المطارق على النواصي و الآذان. ربّاه! هل هناك طارق جديد أم هو العائد التعس أم أن الأشباح قد استعمرت الجوار؟ فتحت أمي الباب بلا مبالاة. لكن تدفّقَ الرجال الغلاظ نحو الداخل. يا للفضيحة! أصبح بيتنا هدفاً يُرمى. ومشاعاً للسّابلة. هكذا يضطهِدُنا الزمن هكذا.. وتكلم الضابط بصوتٍ حاد:

- أنت تُخفونه في مكان ما. أين هو؟

- إنّهُ لم يأت! كيف لا تصدِّقُنا؟

- أين هو إذن؟ هل ابتلعته الأرض؟

- يا سيدي...

وقاطعني بسخرية:

- لعلك ستقولين إنه في مجلس النواب...

- إنه فعلاً خرج إلى مجلس النواب ولم يعد..

وقهقه الضابط عالياً ثم أردف:

- إما أنك يا آنسة ساذجة أو خبيثة. وفي كلا الحالين الأمر ليس في صالحك..

كانت سُخْرِيتُه شائكة كالحجارة. صحْتُ به بلا شعور:

- من فضلك يا سيادة الضابط، هذا كثير..

- لماذا يا آنسة؟ أنت تتكلمين عن الحاج وكأنه فعلاً نائب محترم..

- وهو كذلك..

وتأملني الضابط قليلاً ثم قال بتفكير:

- لعلك تتحدثين على نياتك.. وفِّري حسن النية لغاية الحصول على الحاج..

وبلا مقدمات ندّتْ عن أختي كريمة تنهدة غريبة قالت بعدها بأسف مشروخ: ماذا يحدث؟

يا للمهزلة! يا للمهزلة!

وتراجعتْ أمي عزيزة إلى الظلام وانفرط عقد الآمان. قلت لنفسي ها هي ذي الأحلام تتداعى وتنهار بلا رحمة وتضطهد الهزائم آخر ما تبقى من الأمجاد. شعَرْتُ أن قلبي قلعة رهيبة تتشقق من فرط الاحتراق. فأين الهرب من الأحلام القاسية؟!

آه لو يتخلف الكابوس لحظة أو يوماً واحداً عن ساحة العمر!! إذن لوجدتُ نفسي قبالة المجد الكاذب والسلطان المزيف أوَبِّخُهُ أو

أصارعهُ أو أصرعهُ وحدي. قد أكون أنا القتيلة ولكن لا بأس. ما دام الخصم واحداً لا عشرة. ولكن هيهات..

وقال الوجدان المنفطر بالآلام إن الحلم سيّد لا يتخلى عن مملكته إلا أن تقوم الساعة أو أن تذهب الأرض هباء. وقلت ها هي ذي قيامة أسرتي قد قامت فلمَ يصرٌّ الحلم على البقاء؟!

وهذا منبع المعاناة والعذابات الداخلية. أن تتأكد من عبث الأحلام ثم تصر على أن تحلم!!

هذا هو الحاج السعداوي - أبي الحبيب! - يتكشف وجهه عن تاجر للجريمة. لذلك قال الوجدان إن هذا العصر هو زمن الإفلاسات لكافة الكيانات التي عرفتها. تبّاً لكافة الأقنعة مهما اختزنت من مسرات!! أما أنا فقد قُلْتُ وأنا أبكي من فرط الهوان: أبتاه إنني بعد اليوم أحبك حبّاً هو الجنون أو الانتحار! أحبك لكنك انهدمت. أحبك ولستُ قادرة على التخلص من ذكراك. في نفس الوقت لستُ بغافرة خطاياك. في نفس الوقت عاجزة عن طردك من مملكة القلب الغارقة في الجحيم. في نفس الوقت راغبة عن الإبقاء عليك في دنياي لأنك بعد اليوم يا أبتاه سر العذاب الأبدي.

* * *

حين أفقتُ من ذهولي وتجوالي في أحراش الذات. التفتُّ حولي فوجدت نفسي وحيدة... وحيدة إلى حدود الموت. ويلاه! أين أمي وأختي؟ أين الضابط والرجال؟

ما الأمر يا رباه؟ آه لم يبق من واقعنا غير لحن حزين يُرجِّع آهاته في جنبات البيت الآيل للخراب. لم يبق غير غُصّةٍ قاسية تُعرِّي ما تبقى من عفن السنين. وهرعت إلى الباب أريد الخروج. لم تكن عندي وجهة ألجأ إليها، فقط كنت راغبة في الخروج والتخلص من المجهول. أما المعلوم فها هو ذا يتشكل كأقسى الكوابيس.

أحسستُ مرة أخرى أن كل شيء قد آل للسقوط، وأنه عليّ الرحيل إلى أبعد نقطة للفضاء.

ومرقْتُ من الباب كالحمقاء أريد الشارع...

ها هنا مر بمسمعي صوتٌ أعرفه كما أعرف نفسي. صوتٌ أحببته الأيام وفاخرتُ به الجماد والأحياء.

- رُبا.. رُبا. أنا هنا يا رُبا..

والتفتُّ إلى ناحية الصوت مرتاعة النفس. كان أبي الحاج هو صاحب الصوت. واحسرتاه على نفاق الأيام!! الحاج السعداوي يخرج من بين أزهار الحديقة كالفأر؟! ضحك الباطن في شماتة واستلقى من الاستسلام. ونطق الكون بطلاسم لم أعد أدري أهي بشائر حِكم بالغة أم تهاويل زاخرة بالعبث والفوضى؟ كيف يذِلُّ العزيز ويعزُّ الذليل؟! وكيف تنخفض المصائر وتتأرجح كالعِهْنِ المنفُوش؟ وهتفْتُ بما تبقى لدي من حب تجاه هذا الإنسان:

- أبي. أين أنت يا أبي وماذا تفعل هنا؟!

وعانقتُه كأنني أبُثُّه كل مشاعري المشدودة بين السخط والشفقة. كان القلب يصيح لماذا؟ لماذا؟ وكان اللسان يتستر على حديث الأعماق وساد بيننا الصمْتُ البليد المشحون.

في اليوم الثاني عاد الغائبان. كانت أختي كريمة مكشوفة التعب. الوجه شاحب والجفنان منتفخان. أما أمي فقد كان وجهها لا ينّبئ عن شيء. رُبما لأنها باردة المشاعر.

رُبّما لأنها تعودت على لعبة التخفي وراء شتى الأقنعة. ما أقبح لعبة الأقنعة!!

وبادرتُ إلى السؤال:

- أين كنتما يا أمي؟

بَدَتْ أنها لم تكترِثْ لسؤالي وألفَتْ على وجهي سؤالها المرتقب:

- أين هو؟!

- من هو؟

- أرسين لوبين من هو؟!

عرفْتُ أنها تقصد أبي وهي تنطق اللقب بلهوجة وعصبية. فأجبْتها بحذر:

- إنه في المخبأ الأرضي..

واتجهتْ بلا أدنى انتظار إلى المخبأ. التفتُّ إلى كريمة فوجدتها تغوص في الإعياء الشامل.

رجوتُها في البقاء لكنها أصرتْ على الذهاب إلى باطن الأرض. تبعتُها وأنا أشعر بالهوان.

إنّه شعور لاذع كاقتحام البوليس والفضيحة بين الجيران. وتناهى إليّ كلام مبهم ولكنه لا يشي بالارتياح. الآن أبي الحاج هو الذي يقف

في خندق الدفاع – أما أمي فهي التي تمثل هجوم الدّهر. واندفعت كريمة نحو أبي بكامل قواها باكية يهتز صوتها من القهر، واندفع صوت أمي عزيزة جافاً كالظلام:

-هذا ما كنت تريد؟! أن تقهر بناتك بين الناس؟..

فاندفع نحوها بعصبية كاسحة:

-ألم أقل لك توّقفي عن هذا الكلام؟ قُلْتُ لك مراراً هذا شأني. هذا شأني..

وأجابته بنفس الدرجة من العصبية:

-لا. ليس هذا شأنك وحدك- أنت مسؤول عن سيدة وبنات.

ضحك أبي الحاج عالياً في سخرية مستهترة ثم عقب عليها:

-الآن أصبحت سيدة؟! الآن يا عزيزة يا بنت «البورناويل»؟! الآن وقد كنت مخلوقة تحت الأرض...

كان وجه أمي يحتقن ويقسو بصورة رهيبة. أما لسانها فقد انطلق من عقاله كوابل من الألغام تسخر مني؟! أنا التي جعلت منك إنساناً ولم تكن في الحقيقة غير فلاح لا يحسن حتى لبس السروال. والآن بعد أن دخلت البرلمان أصبحت رجلاً مرحى. مرحى. مرحى. فليكن، ماذا جنيت؟ ها أنت ذا مجرد واحد من قطاع الطرق..

وصرخ أبي في وجهها كالوحش الجريح:

-فليكن يا عزيزة يا بنت الشيخة. أنت السبب على أية حال. لم تعرفي في حياتك غير الجشع ككل النساء. أجل كلكن طمّاعات تحلُبْنَ

الواحد منا حتى إذا أفلس انْبَريْتُنَّ لإعطائه محاضرة من أرشيف الجمعة. هه! ولكن انتظري يا سليلة الجحود والقصدير..

كان يريد الاستمرار لكنها قاطعته بخشونة ساخرة:

- ماذا بيدك فعله يا مسكين؟ أنت الآن طريد البوليس كأي لص يثير الشفقة. وكلمة واحدة مني تلقي بك في السجن أبد الآبدين. أنت الآن تحت رحمتي..

ها هنا انفجر البركان؛ رفع أبي يده إلى السقف وهوى بها على الوجه المكشر بعنف مخيف:

- اسكتي أيتها الشقية التعسة. لأقتُلنّك بيديّ هاتين، لأقتلنّك. ولكن قبل ذلك اسمعي: أنت طالق. طالق. طالق...

* * *

أما كريمة فقد كانت غائبة عن الوجود. أُغمي عليها من شدة الهول. والحق أننا جميعاً كنا قد فقدْنا الوعي تحت الأرض. كنا نتساقط من الداخل كصرعى الاغتيال. وكنت أكثر الخلائق إحساساً بالهوان. ولكني تماسكتُ حتى أعلنْتُ العصيان على الاستسلام. وعدتُ إلى الوعي على صرخات أمي عزيزة المتشنجة. إنها تحت قبضة أبي وهو يضربها بوحشية وقساوة لم يسبق لها مثيل. إنه يضربها بسراج قديم. وها هو ذا يزداد تكسراً على رأسها والدم يشق طريقه بقوة إلى الوجه كالندم. آه منك أيتها الأيام! آه منك أيتها الغدّارة!..

وألقيت بنفسي بينهما. كنت أريد أن أقف جداراً بين أبي والجريمة. كنت أريد إنقاذ أبي من السعار وأمي من الموت البشع.

ولكن أين أبي؟! أين أنت يا أبي؟! إنه يضربنا معاً ببقايا السراج القديم. وها هو ذا الدم والألم الفادح يتوّج رأسي أنا الأخرى. وتدَحْرج الوجدان إلى صورة ما لا تزال في الذاكرة. حسام وهو يئن تحت ضربة السراج. تداخل الزمن في الشعور فصحْتُ بملء الفؤاد كفى يا أبي! كفى! كنت أدافع عن حياة حسام في الباطن وحياة أمي عزيزة تحت الأرض. ولكن ما أبعد الفرق بين الحياتين!! كفى يا أبي! لكنه لم يتوقف. كان سادراً في الانتقام. غبْتُ عن الوعي تحت ضغط الألم. ولم يبق في الذاكرة سوى وقع أقدام ثقيلة وهي تدق درجات السُّلَّم الحلزوني وصراخ مخيفٌ يتوجه إلى أبي الحاج في لهجة آمرة متوعدة:

- البوليس.. توقَّفْ! توقَّفْ! أنت مقبوض عليك...

المشهد الواحد والعشرون

قضتْ أمي عزيزة أربعة أسابيع في حجرة العناية القُصوى. أربعة أسابيع كانت في ثنايا الشعور أعصراً في الجحيم. كيف لا؟ إنه الجحيم الذي عشته وأحياه. لولا الرفقة المفعمة بالأمل لكنت الآن أنا الأخرى أنحدر حثيثة إلى الفناء. المؤمن يبتليه الله. هكذا كانت تقول لي فيتسلل الكلام إلى الباطن يغسله ويعزيه. عليّ بعد اليوم، أن أعيد الاعتبار للزمن. وأن أكفُر بالخطأ حتى الاستشهاد. ها قد سقطتْ أسرة الحاج السعداوي في التفكك والاندثار. وتقول لي فاطمة -ولأول مرة- بصدق جارح: إن الراكب على صهوة الجواد يسقط حتماً حين يركب أحول منذ البداية، أجل الحوَلُ كان منذ البداية..

وقال لنا الدكتور:

- لقد كانت العمليات التي أجريت لها صعبة للغاية.

وتساءلتُ بجزع:

- هل الأمر خطير؟..

أحنى رأسه متأسفاً وقال:

- لن تستطيع المشي خلال سنتين.

انزعجت بشدة حتى بكيت. لكن يدي فاطمة تسلّلتا إلى يدي تشُدّ من أزرهما.

- هل هو الشلل يا دكتور؟

- نعم وللأسف. كانت الضربات كثيرة وقاسية..

وعانقتني فاطمة بحنان وهي تهمس لي:

- لا تخافي يا رُبا.. الله معنا..

وتدخّل الدكتور محاولاً تهدئتي قائلاً:

- احمدي الله يا رُبا، إذ لم يكن الشلل مدى الحياة..

- الحمد لله على كل حال..

أجابتْ وهي تشد على يدي. وتساءلت:

- متى تستطيع الخروج؟..

- غداً يمكنكم أخذها. لكن كرسي العجلات ضروري!

أخذتني فاطمة. وتداخل في الأعماق شعور القهر بشعور الامتنان. لقد تحوّلت أمي عزيزة إلى كائن لا ينم عن شيء. أصبحت وا أسفاه، امرأة بلا معنى. لقد أصابتها الفوضى فأمست تقاسيم وجهها لا تعبر عن أي شيء. أهي على أبواب الجنون؟ ها هو ذا أخيراً شبح النفور من الأشياء كلها يجتاح سلوكها الذي كان يوماً عاشقاً للانطلاق والحرية. أما شعورها نحو أبي الذي هو زوجها - فما فتئ يتشكل رويداً حتى أصبح كراهية خالصة - آه- لقد تذكرتُ أبي! لقد حكمت عليه المحكمة بخمس سنوات يقضيها رهين السجن. كان يمكن أن تكون العقوبة أكثر. ولكن...!

* * *

غداً تغرب الشمس على آخر يوم من السنة. سنة التلاشي والذوبان والفضائح وتصفية الحسابات من طرف مجهول. سيشهد

الزمان رحيل عهد وميلاد عمر جديد، ولكن هل هو فعلاً عمر جديد؟ ليته يكون كذلك! لقد أصبح بيتُنا خراباً تنْعب فيه الغربان. بيت هو في حقيقته أطلالٌ كريهة إلى النفس مستبشعة إلى الروح. كان الفكر أحياناً يلتفت مندهشاً حيران أسِفاً على خراب الأشياء. على تشققها الجديد عن صور شائهة يزيد من تشوهها بقايا مجدٍ قديم لا يزال يُصرُّ على البقاء كسيّدٍ مخلوع. فهل تنفعُ الذكرى بعد أن عربد الزمان؟!..

لم تكن في الحقيقة تلك الطرقات غريبة علي ولكنها كانت قلقة. قد تكون أروى أو شمس أو أحد الأصدقاء. لم جاؤوا؟! بدأت أخاف زوار الليل، فهم مُبشّرون بالكآبة ولو كانوا من الأصدقاء. قُمّ بإطلالة على القلب تعرفْ كيف أصبحت الدنيا! وحيدة في مجلسي، لأن الجميع غادروا الدنيا إلى الجحيم. أمي عزيزة أمست حجرتها هي الكهف الذي استوطنته إلى الأبد. جاهرتْ بالعداء وأعلنتْ موتها الجديد. إنه موقعها على كرسي سيّار. أما أختي الوحيدة فقد استضافها عالم الصرعى. يا لكريمة التعسة! اشتعلت في ملابسها النيران ولم تكن من سدَنَتِها الحقيقيّين.

وفتحت الباب على وجه شاحب لاهث مكسو بالظلام. كانت نظراته قلقة خافقة كأنها تبحث عن شيء ضاع. أما الجبين فقد كان ناطقاً بالأحزان. وبادرني بدون تحية وبلسان مثقل بالسؤال:

- أروى.. أروى يا رُبا.. أبحث عن أروى...

وتوجّستُ خيفة من الزيارة.

- تفضل يا جلال. تفضل واهدأ قليلاً. ما الأمر؟

- أروى يا رُبا.. اختفت منذ ليلة الأمس، وأحسب أنك تعرفين شيئاً ما..

وأجبته وأنا أزداد توجُّساً من الباقي:

- لا إنها لم تزرني. ولم أرها - أين كنتم؟..

- كنا البارحة في النجمة. أحيينا الليلة حتى الهزيع الأخير من الليل...

وتوقف كي يستجمع أنفاسه المبعثرة، ثم تابع:

- كنا معاً طوال الليل. شربنا معاً ورقصنا حتى تعبنا..

وتساءلتُ باستياء:

- تقول شربتما معاً؟!

أجاب بلا مبالاة:

- أجل نِمْنا جميعاً في النادي. كنا منبطحين في الحديقة وحينما استيقظتُ لم أجدها: كان الجميع لا يزال منبطحاً إلا هي. بحثْنا عنها في كل ركن فلم نعثر عليها. وأنا لا أزال أبحث بدون جدوى..

- إنها لم تأت عندي كما أنني لم أخرج من البيت..

واستدركت:

- كما تعلم مضطرة إلى البقاء بجانب أمي...

- آه. أعرف ذلك... ولكن يجب أن أجدها..

قلت له برجاء كي لا يستمر في رفع صوته:

- طيب يا جلال لا تصرخ. سنبحث عنها معاً...

وتركتُه كالممسوس يقطعُ أرض المجلس جيئة وإياباً. صعدتُ إلى غرفتي كي أغير ملابسي. حدثّتني نفسي بأن الكوابيس مزمعة على الانتشار. وتشاءمت من هذه الزيارة حتى تنبأ القلب بأشياء لا تُسر. ماذا يبغيه مني جلال؟ كانت الذاكرة قد تدحرجت بالإجبار إلى أيام الضياع الأكبر. تراءت لي النجمة مثقلة بآلاف الخيانات. ترى أين اختفت أروى؟ غابت في طيات النادي الذي لا أكن له غير الكراهية. وقالت كل الأمكنة إنها تجهل مصير أروى فمن يبشر يا ترى بالفرج؟ وقلتُ في ضيق: تكشَّفْ يا أيها المجهول واضربنا مرة واحدة كي نرتاح.

وخرجت من غرفتي متسارعة نحو الفضاء. وكانت النفس الوجلة تسبقني موسعةً خطاها تريد اليقين. أما جلال فقد كان نفاد الصبر بادياً عليه. نسيت أن أقول لأمي إنني خارجة. لكن لا حاجة لذلك والتفتُّ إليه باهتمام وقلق:

- قلت إنكما لم تخرجا من النادي..

- هو كذلك لم نخرج..

- وبحثتم عنها في كل مكان؟

- أجل. هو كذلك لماذا تسأليني؟

- بادرني بصوت قلق، وقلت له:

- لنخرج السيارة من الجراج ثم نتحدث..

- ليس لدينا وقت لنذهب راجلين..

- لا. السيارة يا عزيزي عاطلة هذه الأيام فلم لا نستعملها..

- قال لي وقد أدرك المعنى:

- أنا متأسف يا رُبا. أنت الأخرى في حاجة إلى المساعدة.

قاطعته بإشفاق:

- لا تقل هذا يا جلال. هذا أنسب زمان لنتّحد ضد التآكل..

- صدقْتِ. هذا وقت التآكل..

وتساءلتُ بجدية:

- وما رأي الزعيم؟..

- كان أشدَّنا خوفاً عليها..

تساءلتُ بسخرية:

- إلى هذه الدرجة؟!..

- هو على أية حال بذل المستطاع..

وعدتُ إليه أزرع في كيانه بذور الاطمئنان..

- المهم لا تخف يا جلال. هكذا هي أروى. أنا أعرفها!! دائماً تمطر ذوي القربى بالمفاجآت..

فقاطعني بعصبية:

- ولكن هذا الوقت ليس مناسباً لتبييض المفاجآت.. إننا نستعِدٌ لزواجنا كما تعلمين..

- صحيح. ولكن لنحاول أن نطمئن..

وعطفْنا على شارع علال بن عبد الله. سيماء جلال باديةُ التَّعب ناطقةٌ بالغثيان وأروى تمطر ذوي القربى بالمفاجآت والانتظار. وقلت لا بد أن في الأمر شيئاً جديداً وأخاف أن يكون فاتحاً بوابته على الدخان. أنا مُتوجّسة وسيئة النية ولم لا؟ ففي نادي النجمة عشعشت الخيالاتُ وفّرخت الكوابيس والأحاجي وزغردت الحقائق التي لا يصدقها انسان. يا لأروى! يا لأروى! لم ثقفين حليفة للعذاب الذي يكبر ببطء كالأشراك؟! والتجأت هاربة إلى جلال أحاوره وأُطمئُن نفسي:

- متأكد أنكم بحثتم عنها في كل أركان النادي؟.

ونفخ بملل واضح:

- أُفّ عدنا إلى هذه السيرة. لقد استنطقنا الحجارة. هه، هل ارتحت؟!

- طيب. طيب لا تغضب، أحب أن أتأكد. فللنادي حجرات سرّية وسراديب خفية.

- أرجو أن تكوني الآن مكتفية و...

وتوقف جلال فجأة عن متابعة الكلام. والتفتَ إليَّ سريعاً كمن تذكّر شيئاً أو ظفر بشيء:

- أعيدي ما قلت..

- ماذا؟..

- قلت أعيدي ما قلت..

- ماذا قلتُ؟

- أوف. ماذا قلت في كلامك الأخير؟.

- قلت للنادي حجرات سريّة وسراديب.

- عظيم يا رُبا. هذه الحلقه المفقودة والباقية..

- ماذا تقصد؟!..

- لم نبْحث في تلك الحجرات والسراديب.

وضحكنا معاً كأننا ظفرنا بجواب لأفظع المعادلات. وعطفنا بسرعة على شارع فرنسا نريد النادي.

قلت له: ألم أقل لك؟! فقال لي أنا الذي اكتشفت. ضحكنا وقلنا المهم أن نظفر بالهاربة. قال لي: أجل إنها شقية كل الشقاوة لذلك سأعاقبها عقاباً. قلت له: لا وقت للعقاب. فقال لي بصدق وحماسة: أجل لا وقت للعقاب. وصمتنا... عدت وتذكّرتُ شيئاً يوحي دائماً بالسوء والفحشاء. الغرفة المختنقة بأضوائها الباهتة. وضغطتُ على محرك السيارة كي تنطلق بأقصى المستطاع. نظرتُ إلى الساعة فكانت الثامنة. وها هي ذي بوابة النادي مرة أخرى تنتزع مني التألُّم والتداعي، ومنّا تنتزع الانتظار والترقب. لم يكن لدينا وقت للصبر فاقتحمنا البوابة ومنها إلى الأحشاء. وصرخ جلال بلهفة:

- مسيو روبرتو. أين أنت يا مسيو روبرتو...

وأجابنا الصمت والظلام إلا من أنوار الممرات. كان فضاء الأحشاء مشحوناً بالرهبة وكنت أشم رائحة المجهول. وردّدَ جلال صراخه الملهوف:

- أين أنت يا مسيو روبرتو؟..

لم يكن لديّ اختيار آخر. تقدَّمتُ إلى أدراج السلم أريد طيّها طيّاً. كنت أعرفها لأني سلكتها ذات يوم.

رباه! كانت قوة طاغية متحكمة متجبرة تأخذ بتلابيبي وتجرجرني من رجلي ويدي. أما الحواس فقد اجتمعت على صعيد واحد وتركَّزتْ على الغرفة الغارقة في الغموض. إنها ها هنا منزوية منعزلة في نهاية هذا الممر المظلم. هنا حيث الصمت أمير ولا شيء غير الصمت. ولكن كان كريهاً ثقيلاً ذلك الصمت المهيمن. كانت خطوات جلال تتعقَّبُني بإصرار. أما يداه فكانتا بين البرهة والأخرى تلمس كتفي كأنها تذكراني بأن علي أن أسرع أكثر. أما صوته فقد كان مضطرباً.

بلا استئذان اقتحمنا الغرفة نحمل بركاناً من الأمل والخوف كانت غارقة في الصمت وشحوب الأنوار. آه يا للفرحة!! لم نجد غيرها: أروى ممدودة على السرير. يغلِّف جسدها غطاءٌ داكن الألوان. كان جلال في هذه اللحظات قد ارتمى إلى جانبها وهو يصرخ:

- أروى.. أروى.. أين أنت يا أروى؟ لقد بحثنا عنك في كل مكان..

وارتميت إلى جانبها في الضفة الأخرى. كان جسد أروى يرتعش تحت اللحاف وأحياناً ينتفض كمن صدمتْه الكهرباء. كانت ملقاة على وجهها. صرخ جلال وأنا مرة واحدة:

- أروى.. أفيقي يا أروى.. أروى..

كانت ترتعش ولكن صامته مُهطِعة كالميتة. وسارعتُ إلى قلبها على ظهرها فإذا هي عارية. عاريةٌ تماماً كطفل وليد. رباه! ما معنى هذا؟ وأيان يتجه الإيقاع؟ لقد تسمّرتْ عينا جلال على الوجه المتشح بالموتْ وها هي ذي الحصيلة! زرقة مخيفة حوْلَ عينيها وثغْرها كنذير بالفناء. الوجنتان باردتان تنحدران في بركة شحوب أزرق ناطق بالهلع. أما شفتاها الجافتان فقد كانت ترتجفان كهضبتين صغيرتين تحت رحمة زلزال. أما نظراتها فقد تاهتا في فضاء الغرفة بلا جدوى، وكانتا تذرفان بلا معنى - أواه!! بل تحملان سيلاً من المعاني..

وندّ عن جلال صراخٌ كحيوان مسعور:

- أروى.. أروى.. أروى..

كان يهزُّها بعنف شديد. وكنت أحاول تخليصها من يديه عبثاً وبدون جدوى. لقد تحوّلتا إلى قبضتين من حديد ميت. وكنت أرجوه بتوسل:

- جلال.. اهدأ يا جلال.. أتوسل إليك أن تهدأ..

- أروى انتهتْ يا رُبا.. أروى انتهتْ.. انتهتْ..

- لا، لا تقل ذلك. ستكون بخير..

أجابني بلا تركيز:

- انظري إليها. إنها باردة وبشعة. إنها تُنْذِرُ بالنهاية.. آه يا للعزيزة أروى..

والتفت حوله، ثمَّ انكب عليها كالمجنون:

- أروى.. أفيقي يا أروى. متى فعلت بنفسك هذا؟ وكيف.. أفيقي...

وغاب جلال في بكاء عنيف حار منكسر. آه ماذا فعلت بنفسك يا أروى؟ وفجأة ندّ عنها سعال مخنوق. كانت بين ذلك تشهق كأنها تتنفس بصعوبة شديدة. ماذا فعلت بنفسك يا أروى؟ وتحولتْ كل طاقاتنا وحواسِّنا إليها. أصبحتْ قُطباً نارياً ونحن كواكب حيرى ندور في أفلاك الرعب والغموض. اقتربنا من وجهها لعلنا نلتقط شعاع أمل ما. أما هو فقد انكبَّ عليها جزعاً ملتاعاً بعنف:

- أروى.. أروى.. أنا جلال، أتسمعين صوتي؟ أنا جلال يا عزيزتي..

وكانت تعود إلى الحياة ببطء شديد. لكن بقدمٍ في الوجود وأخرى في العدم. نطقتْ وتكلّمتْ، بهمس ضعيف مخذول كحشرجة الموتى:

- جـ.. ـلال، جلا...ل..

وتسارع إليها نداء الملهوف:

- أجل أنا جلال، هل ترينني يا أروى؟ انظري إليَّ..

- جلال..

- نحن معك أنا وربا..

- جلال..

كانت الكلمة الوحيدة التي تخرج من بين شفتيها الزرقاوين. أما أنا فقد كنت أردد سؤالا مهشماً واحداً لا ثاني له. ماذا فعلت بنفسك يا أروى؟.. والتفتتْ إليّ ببطء باهت وعينيْن تحملان نظرة ميتة دامعة. افترَّ ثغرها المنهار البارد عن شبح ابتسامة كالحة كبقايا لون قديم. أخيراً استطاعتْ أن تلمس يدي. ها هو ذا الموت يلمس يدي. كان واضحاً أنها تبذل جهداً جبّاراً كي تنطق أو تلتقط الحروف. كان ذلك الثغْرُ المتعب يوماً ما منطلقاً للبسمة ومرْفأ للأحلام. وها هو ذاك الساعة يتحرك عن فراغ لا يقول شيئاً. يئسنا من التقاط أية كلمة أو معنى، لكن جلالاً كان مصراً على طرق بوابة المجهول. انحنى بسمعه على شفتيها فقد كانت هي الأخرى تحاول قول شيء ما. وها هو ذا يعود من الجحيم. انتفض كالمصروع ليلتفت إليّ بعينين زائغتين:

- ربا.. استمعي معي. إنها تقول شيئاً..

انْحَنَيْتُ وانْحَنَتْ معي الحياة. سمعتها تقول بصوت متحشرج خائر:

- مسيو روبرتو.. روبرتو.. روبرتو..

والتفتت نظراتنا الزائغة وتجمدنا كالموتى. ما معنى هذا؟ روبرتو.. ما معنى هذا؟ روبرتو.. وانكببنا معاً على وجهها بارتياع أشد، وقال الصوت المنذر بالتّلاشي:

- روبرتو.. محطة.. القطار.. روبرتو.. القطار..

لم أعد أسمع شيئاً وغابت الدنيا متوارية عن البصر. ولم أعد أسمع شيئاً غير صراخ وعويل.

انقلب العالم في الغرفة المشؤومة. وباءت الألوانُ بفشل ذريع. أصبحتْ كل الدُّنا شُهُباً منذرة بخراب أكبر على ماذا يزمع هذا الضياع؟ بالأمس أنا وأبي وأختي وأمي، واليوم أروى فماذا يبقى في جبة الأيام؟ عمّ الإفلاس أكثر فأكثر وانتشر الوباء فأين الدواء؟ وها هو ذا الكفر بكل شيء مما عرفتُ يتسابق إلى احتلال كافة القلاع ألا فلتسقط كافة القلاع!

ومرة أخرى التفتنا نحو بعضنا حيارى ثم عدنا صاغرين إلى أروى. انكبّ جلال عليها يهُزُّها بعنف ويصرخ صراخاً شديداً:

- أروى.. أروى.. أروى..

لكن أروى كانت قد فارقتِ الحياة.. الحياة التي لم تكن تستحق العيش منذ البدء..

المشهد الثاني والعشرون

انطلقتْ بنا السيارة بسرعة جنونية. ولم يكن جلال يمهلني أو يسمع مني أو يمنحني الفرصة للتساؤل والرجاء. كان قد تحول إلى كائن آخر. احتل مكان القيادة بالإجبار وقادني رهينة إلى مرابض أشد هوْلاً من الانتحار. تأكدتُ من ذلك حين عاد بسرعة البرق حاملاً بندقية لصيد الخنازير، قلت له ما هذا يا جلال؟ فالتفت إليَّ متوعداً كالوحش ليقول لي بعينيه إن السؤال من الكبائر. قلت لنفسي لقد انتهينا جميعاً ورب السماوات. وكانت عيناي بلا إرادة مني تذرفان..

* * *

كانت أمطار ليلة فاتح يناير تتنزل مدراراً من السماء. وكان الظلام يتساقط مع المطر فيصنع بذلك عالماً آخر. وتراءت محطة القطار زاهية الأنوار. ولكن لا قيمة لذلك فالقلب منطفئ مكروبٌ. تركنا مسجد السنة وراءنا عن كثب. وقادتنا السيارةُ المنتحرة إلى وسط الساحة الواسعة التي تتقاطع في قلبها الطرق مع شارع محمد الخامس. توقفتْ بعنف مُحْدِثة صوتاً مزعجاً كالنّعيب. توقفتْ السيارة بنا في عرض الطريق. وسط الساحة الممتدة أمام باب المحطة الزاهية الأنوار. وتبعثر نظام السير وأصبح حُداء الفوضى هو الفاصل بين نفير السيارات وصفارات شرطة الطريق. وتوقفتْ حركة السير، وبدأتِ الوجوه تشرئبُّ حولنا من بعيد على الأرصفة. في هذه اللحظات التي كنت فيها مصابة بشلل فكري وجسدي تام، كان جلال

قد انطلق بسرعة متوعدة نحو المحطة. كانت البندقية في اليد وإعلان العصيان ضد العقل في الكيان. تطلّعتُ إلى السماء مستغيثة فأجابتني الأمطار السادرة. هذه ليلة عيد الميلاد. والتفتُّ حولي فإذا الناس قد تجمهروا بمظلاتهم حول السيارات المتوقفة بفوضى في شتى الاتجاهات. نزلتُ خائفة من السيارة غير مبالية بتهاطل الأمطار. التفتُّ حولي باحثة عن جلال وتقدمتُ نحو المحطة خطوات. لكن ها هو ذا الصوت يزمجر ناطقاً بالوعيد:

- روبرتو..

دوى صوت رصاصة في الفضاء فأُخرست الضوضاء وغابت الأصوات في الظلام، تراجعتْ جموع المارّة وسطر الرعب على المكان. وتكرر الصوت بالوعيد:

- روبرتو..

وبدا شبح متدثر في معطف أسود يتعثر في خطواته كالهارب يبحث كالفأر عن مخبأ ما وأوقفته صيحة زاخرة بالألم والجنون:

- توقف أيها الخنزير...

وجمد الشّبح الهارب مكانه كالتمثال. أما جلال فقد تحوّل إلى إنسان حديدي يتقدم من عدُوِّه كآلة صماء. كانت فوهة البندقة شاخصة على شخص العدو وبعناد مخيف. أواه ماذا تنوي فعله يا أيها الضحية المسكين؟ وجريتُ نحوه أصرخ وأتوسل ألا يفعل شيئاً يؤذيه. كنت أتوسل بصوت صارخ بدون أن أهتم لحشود الناس الذي تحلّقوا

حولنا. كانت الأمطار الهطالة تنزل على الأرض بقوة طوفانية مُحْدِثةً بذلك سيولاً مائية صغيرة لكن سريعة. تبلّلت ملابسنا نهائياً، أما الرأس والوجه فقد تحولا إلى جسم يتلقى صفعات المطر بلا اهتمام. التفتُّ إلى الشبح فإذا هو المسيو نفسه وحروف المذلة والهلع تُعسْكِرُ في عينيه ووجنتيه المترهلتين. كانت حركات يديه متوسلة ولكن على من تنادي أيها الشقي؟ كنتُ في هذه اللحظات أريد التقدم أكثر كي أمنع حدوث المتوقَّع. فإذا جلال يلتفتُ إليّ بوحشية وهو يوجه إليّ فوهة بندقيته الغاضبة مثله. ارْتَعْتُ بشدة وأوقفني قهراً صوته المتحشرج ونظراته الرهيبة. أواه. ما أجمل طعم البدايات وما أبشع النهايات! وأخيراً نطق الشبح الشقي الكهل:

- جلال.. أرجوك افهمني. لم أكن أقصد، دعنا نتحاور!..

ولكن قاطعه الكائن المخيف:

- أيها الخنزير..

وبقساوة لم أشهد مثلها اقترب منه.. غرز فوهة بندقيته في جبين الزعيم، وأطلق الرصاص المتبقي داخل الخزان. دوّى صوتٌ قوي كئيب في الأجواء. تماوجت حشود الخلق من الرعب، تناثر الدماغ ببشاعة، وهوى الجسد كبناء قديم كان ينبغي أن ينهار. تداعى الشبح إلى الأرض وآل للفناء.

ونظرتُ مرتاعة فإذا الوجه قد انشق إلى نصفين غير متساويين. صرخْتُ من الهول وتصايحت النسوة والفتيات من حولي. نظرت مرة أخرى فكانت الأضواء تنعكس على الأرض السوداء المبللة أضواء

السيارات وأنوار الشارع المحتفلة بعيد رأس السنة. تأمّلْتُ الجسد المنهار والرأس المشروخ والدماء الفائرة بقوة من تلك الكتلة المشوهة. كانت ترسم لنفسها طريقاً ما ولكن مياه الأمطار كانت جادة في محْوِها من فوق الأرض. كأنَّ الدّمَ مسؤولٌ عن الماضي. وها هو ذا يفجر أطباق الحاضر.

* * *

ها هو إذن هذا الفضاء يمسي مُثْقَلاً بالخطر. يا لطيف! يا لطيف! يا لطيف!..

حضر البوليس بكثرة وكانت عينا جلال تدُوران في محجريهما بلا جدوى. شاهراً بندقيته يلتفتُ للجهات الأربع. من قبل كان قد حشا خزّان البندقيه برصاصتين. مَنِ المرشح الآخر للموت؟ عِلْمُ ذلك في رأس جلال المسكين، وصاح بالجميع بوحشية:

- لا تقتربوا..

وضحك بهستيرية مرعبة.

- لا تقتربوا.. دعونا نصفي حساباً طال انتظاره..

مرة أخرى ترددتِ الضحكات المخيفة في أطباق الفضاء.

- ما لكم؟ ألا تعرفون من نحن؟!..

تمادى في ذلك الضحك كأن العالم طابور من المجانين وهو العاقل الوحيد:

- أنا! ها. ها. وأروى وإليـاس... وحـتى أنتم هاهاها... نحن جميعاً.. هاهاها!

لم يتم خطابه الآتي من سعير الأعماق. ضحك عالياً وهو يشهر بندقيته في وجه البوليس.. وتابع كلامه البدائي بدون أن ينتظر جواباً من أحد:

- وهذا

وأشار ببندقيته إلى الجثة المعفرة بالدم والماء:

- وهذا هو الزعيم.. ها ها ها.. جئنا لنشهد نهاية المهزلة. أجل أيها السادة هلُمُّوا لنشهد آخر فصل من المهزلة.. ها ها ها...

تعالت قهقهاته عالياً وكنتُ أحسبها دعاءً لا يفهمه سوانا أنا وهو لكن. بسرعة لم تكن متوقعة. بسرعة مُروعة سدّد فوهة البندقية بقساوة إلى الفم الضاحك. ندت عني شهقة عالية لأنّي كنت عرفتُ ماذا ينوي أن يفعل. إنه آخر فصل للمهزلة ويجب أن ينتهي إلى غير رجعة. صِحْتُ وأنا على حافة الجنون: أنقذوه! أنقذوه! ولكن دويّ الرصاص اغتال صدى صراخي المبحوح.. لقد سقط جلال صريعاً بالقرب من جثة الزعيم يفور الدم القاني بغزارة من فمه المهشم. أواه لم يبق شيء يستحق العيش! وسقطْتُ أنا الأخرى وأنا أحسبُ أن كل من حولي من خلائق وأضواء وأسوار ومبانٍ يتساقط ويتهاوى. وظننْتُ أني أسقُطُ إلى الأبد...

وفعلاً.. لقد تساقط كل شيء وتهاوى كأن الآزفة قد حلّتْ. لقد انتهى الأمر.. تساقط الحاج السعداوي ومن ورائه كريمة وأمي عزيزة. تساقط الزعيم الذي كان وراء الهاوية. هوتْ أروى ومن ورائها جلال المسكين. الشاب الذي التحق بنا ذات يوم في نادي الموت وهو لا يحسن غير الصمت والخجل. وتساقطتْ من وراء هؤلاء جميعاً كافة التَّصوُّرات والقناعات.

الكفر الآن هو سيد الميدان وقد هلكت كافة الأنوار وغرَقتْ في الضباب كافة المرافئ والجُزُر فأين المفر؟! كانت صور الدم الفائر بغزارة لا تزال تستعرض ألوانها البشعة أمام بصري الكليل. فَتحْتُ عينيّ فلمْ أرَ غيْرَ أطياف الدم. كل الأشكال الداخلة في مجال بصري قد تكفّنتْ بالدم. وتواصل هذياني الداخلي لا أدري كم من الوقت. بيد أنّ وجوهاً عزيزة كانت كافية لتعود بي إلى الدنيا بعد أن ظنْنتُ أني فارقتها إلى الأبد. كانت هذه الوجوه تتطلّع إليّ بقسمات طفا عليها الحزن. هذا وجه فاطمة وهذه أمينة. وهذا أخي وحبيبي حسام. آه كم اشتقْتُ إليكُمْ أيُّها الأحبة! وكم أنا عطشى إلى الارتماء في عمق الأحضان! بعد أن أفلستْ كافة الأزمنة وكافة الأمكنة وكافة التصورات. آه أيها الأحبة الحقيقيون آه! ضاع المجدُ والزيف انهدم. افتضح القُبْح والبيتُ الكبيرُ آل للسُّقُوط وسقط الضحايا كالذبائح واحداً تلو الآخر. تقهقروا إلى الوراء كعناوين للمهزلة. أجل هي المهزلة ترسُو على أقبح مرافئها ولكن ما أعْدلَ القدر.. ما أعدل القدر!.

كان وجه فاطمة هادئاً ولكنه ممطر العينين. وأما أمينة فقد احتضنتني كأقرب الناس. وما أقربُ الناس في الحق سواك. أنت الذي ترْنو إليّ بذلك الهدوء الذي لبث ثابتاً فيك الأحقاب والسنين، ولكنك حزين حتى النخاع. أين أنا؟ هل فعلاً تخلصتُ من أطباق الانتحار الجماعي أم أنّ مشنقة المجهول لم تُطَوِّقْ عنقي بعد؟ أين أنا؟ أين أنا؟

وجاءني صوت حبيب:

- بخير إن شاء الله يا أختاه...

رنَوْتُ إليها بعينين متعبتين. فاضت الأحزان وأمْطَرَ القهرُ. أمّا الباطن فكان يموج بطوفان من الأحاديث. لكنها أحاديث حبيسة بين الحلق والقلب المخذول. أمسى الباطن زنزانةً واللغة سجينةٌ واللسانُ صريع ما رآه. أواه ليس من سمع كمن رأى! ليس من سمع ولساعات قليلة كمن شهد العذاب ورأى الطوفان ولشهورٍ طويلة. لذلك فاللسان صريعٌ كليلٌ تهاوى في فمي والصدر سجّان! ومرة أخرى وصلني صوت فاطمة من بعيد:

- رُبا.. لقد انتهى كل شيء يا أختي..

وتمتمْتُ بتعب وأسى:-

- أين أنا؟ أمي عزيزة وحيدة في البيت.. أمي عزيزة.. أدركوها..

وجاءني صوتُ حسام:

- اطمئني بمجرد أن عرفنا ما حدث ليلة البارحة، ذهبنا أنا وأمينة إلى البيت... أُمُّنا بخير يا رُبا.. أنا وأمينة نقوم بخدمتها فلا تفكري في أي شيء.. وتنقلت عيناي الدامعتان بين كافة الوجوه الحبيبة. هبّتْ عليّ نسائم رائعة فحلِمْتُ بالسلام. هربْتُ من باطني وتطلّعتُ بنهم إلى سلامٍ دائم مع الوجود بعْدَ حرْبٍ ضروسٍ تحت حلْف الخطأ.

وها هو ذا العزاء يتسَّربُ إلى نفسي واليقين يتدفّق عن جدارة في الوجدان. أما الذاكرة فقد كانت ساعتئذ حائرة بين ضفتين متناقضتين غاية التناقض. ضفة عائمة في الدم والمغامرة والطغيان والأخطاء، وضفة مطمئنة تهب عليها نسائم اليقين. اليقين بألاّ شيء يبقى وأن كل شيء هالك إلا هو: الإيمان برب فاطمة وحسام وأمينة.. لا الزَّيْف أريد ولا الطغيان. لا الكذبَ والانتحار أريد ولا الشيطان. آه لا الشيطان أريد ولا الشيطان...

* * *

الجمعة. يوم الخروج من المستشفى ويوم اللقاء مع الأحبة. وهو أيضاً يوم الخروج إلى الصلاة.

أجل إنّه يوم الخروج إلى الصلاة. هذا موعد حضور فاطمة وحسام وأمينة وأنا أبحث عن ثغرة في معطف الوقت أهرب منها من ثقل الانتظار. لا الشيطان أريد ولا الشيطان! لا الشيطان أريد ولا الشيطان. هذه تسبيحتي الأولى بعد أن نطق اللسان. وطفقْتُ أستدعي العمر الذاهب وأستعرض الأحداث. يا الله.. أنت الرب

الجدير بأن تُعبد! عرفتُ أخيراً أنك أيُّها الحنّان كنت تقْرع الأجراس في وعي فتاة سادرة في قاع المجاري الآسنة. عرفتُ أنك كُنْتَ تصفعني لكن لكي توقظني وتحييني. كنت تُعذبني لكن لتغسلني من الأوساخ وتُقربني. كنت تزرع طريقي بالألغام لكن لكي تَقْتُلني خاطئة، وطاهرة تبعثني وتُرضيني. كنْتَ تَسُدُّ في وجهي كل الأنفاق وكل الأبواب لكن لكي تهديني. كنت يا ربّ تطردني من رضاك وتُباعد بيني وبين ودادك لكن، لكي أعْرِفَ المسار إليك فأعْرِفَك أخيراً وتؤويني. وها أنا ذي اليوم عائدة إليك. أناجيك. أشكُرك. أناديك. أحمدُك. أهدي نفسي إليك. أذكُرك. أؤوب إليك. فهل يا ترى يا ربٌّ.. يا ودود.. يا حبيب تقبلني وتهديني؟ تُكْرمني بالجوار والمعية والرضا والنعمى والسلوى وتحميني؟..

أعادني من مناجاتي الخاشعة صوتٌ هادئٌ يخاطبني باسمي. التفتُّ فكان حسام وأمينة وفاطمة جميعهم يمثلون أمامي والطمأنينة رابعتهم. هكذا، هكذا! من النُعمى إلى النعمى. ومن المعية العُلوية إلى المعية الزاخرة بشذى الأبرار، تَنَهَّدْتُ بصوتٍ مسموع وفرِحْتُ لهم غاية الفرح، وتعانقت عيوننا بحرارة نشْوى جذلة فرحانَة حتى أمطرتْ من العيون وقلت إنّ زمان الرضى غير زمان السّخط، وعُمْرَ الفرحة هو الحيوان ولكن لا نفقه ذلك حتى نعيش زمان الانتحار وخرجنا من صالة الجلوس بالمُسْتَشفى يشُدُّ بعضنا بعضاً في اتجاه مفترق الطرق. وقال حُسام:

- سَنَحْتفِلُ بك اليوم احتفالاً لا نظير له..

اكتفيت بتذّوق السعادة صامتة. وبادرتني أمينة ضاحكة:

- لقد تركنا أمي تهيِّئ لنا الغداء. أما أبي فقد ذبح لك شاته الوحيدة..

وقالت فاطمة:

- أما أنا فأود أن تقبلي مني هذه الهدية..

والتفتُّ إليها والنشوة تأخذ بتلابيب نفسي.. تمْتَمْتُ باستسلام:

- هذا كثير..

- لا شيء يكثر على رُبا العائدة إلينا..

- أجل لا شيء يكثر على رُبا العائدة إلينا..

وقالت أمينة:

- نحن سعداء بك يا رُبا..

قُلْتُ بصدق:

- أنا أيضاً سعيدة بكم منتهى السعادة..

وتساءلت فاطمة بدعابتها المعهودة:

- منتهى السعادة؟!..

قلت بصدق:

- نعم. منتهى السعادة..

والتفتَ حسام إلى أمينة وهو بادي الانشراح:

- أما الآن، فاذهبا بريًا إلى البيت كي تستريح. أما أنا وأحمد فذاهبان إلى المسجد..

التفتُّ إليهم كمن يحرص على أعز الأشياء لديه:

- وأنا أيضاً ذاهبة إلى المسجد..

ساد الصمت. وتُبودلتِ البسمات. أحببت من الأعماق أن أنزل الحلم من السماء إلى الأرض. وكرّرتُ على أسماع الباسمين رغبتي الجديدة:

- ما لكم؟ أنا أريد الذهاب إلى المسجد.. حرام؟!..

* * *

هذه هي أنا..

خارجة من المسجد وقد أيقنْتُ أني وُلدتُ من جديد. ولم لا؟ يكفيك أن تتخلص من نادي النجمة. أو يموت الزعيم أو ينتحر أمامك الضحايا أو تتساقط أمام عينيك الشعارات. يكفيك هذا كي تولد من جديد. أما حين تدخل إلى حصن المحراب وتهوي مع الساجدين. حين يتزاحم منك الجسد مع الجسد. واليد مع اليد. وتسجد خلف أرجل الساجدين فأنت أمام مقام البداية..

ومع ذلك التفتُّ إلى الباطن أعود به إلى مناكب الأرض بعد أنْ تطلع إلى سدرة المنتهى. خاطبتهُ قائلة إنك لم تُحقق شيئاً ذا بال فأنْتَ اضطررْتَ إلى العودة اضطراراً حين هرِمتْ قدّامك كافة الجسور فعُدتَ منقاداً كالثور. عُدْتَ وأنت تعلم علم اليقين أن الانحراف قليلاً إلى اليمين أو اليسار معناه الانتقال من النور إلى النار ومن أعلى عليين إلى أسفل سافلين. لقد ارتميتَ في حصن الأنوار بعد أن هدّك الظلام. وبادرني حسام بهدوء:

- لقد حقّقتِ ذاتك على شكل رائع يا رُبا..

كنا نسير معاً وقد تقدّمتْ فاطمة وأمينة أمامنا في السير إلى البيت. وأجبت بصدق:

- أبداً. فالعطش يضطرنا إلى البحث عن الماء بالأظافر..

- لقد أصبحت رائعة..

قلتُ راضية النفس:

- بل أنت الرائع حقاً..

- وحققت حُلماً كان يراودني العمر كله..

- ما هو؟..

تساءلتُ بحبور: وأجابني وصوته زاخرٌ بالامتنان:

- ما أنت فيه الآن..

- ما أجمل ما أنا فيه الآن!..

وصمتْنا ونحن نسير وراء فاطمة وأمينة. كان جسد «الصومعة» الضارب في كبد الفضاء يتطلع إليّ كأنه يشرف على بناء صغير يريد أن يضرب أيضاً في كبد الفضاء.. تأملتُ المنازل الهادئة في «حي حسّان» فتراءتْ لي كوناً سعيداً بلا كدر ولا أحزان. عاد إليّ شعور السيادة والاستعلاء لكن سيادة بلا شيطان واستعلاء بلا طغيان. وصمَتْنا ونحن نتابع الخطو وراء فاطمة وأمينة. مَثْنى مَثْنى ككتيبة تطمح إلى فتح جديد، صمتْنا كي ننصت إلى دقات القلب المطمئنة وإيقاع هذا الخطو الجديد.. كنت أتَعَمَّدُ السير ببطء كأني أتذوّق طعم

الخطوات. من الجريمة إلى العقاب، ومن العقاب إلى التطهر، ومن التطهر إلى صفارات الإنذار بضرورة سلخ الجلد، ومن التردد إلى السقوط، إلى الانهيار، إلى الاضطرار لقبول الانقلاب كدواء أخير.. وتطلّعتُ مرة أخرى إلى صومعة حسّان. تساءلتُ هل من الضروري - للوصول إلى شاطئ ما - أن تُوجد في الأفق منارة؟! قلت اعترافاً بفضل طال السكوت عنه إن حساماً كان تلك المنارة الصبورة العارفة بضعف الظلام. أما فاطمة فقد أسلمتني إليها الأيام القاحلة كُتلَة آلام منهارة ففكّكتْ أجزائي الصدئة وغسلتها في شلاّلات الوضوح والصدق وحسن الخلق ثم ركّبَتني من جديد.

فهل اعتبرت يومها؟ لا لقد مضيت في الخضوع للعبة الطواحين حتى تساقطت أمامي القلاع قلعة قلعة. تساقطت كي تقول لي إن البقاء الحقيقي ليس ضرورياً أن يكون ذلك الشعاع الخدّاع. وأن الجمال ليس بالضرورة دوماً هو الذي يُفرح ويُسِرُّ، بل يكون أيضاً ذلك الذي يُؤلم بحق قدرته على فتح أوعية القلب لاستقبال هواء جديد. والتفتُّ إلى حسام أبوحُ له بما رأيت:

- أتدري يا حسام، إن أجمل ما في السعادة هو شعورنا بالانتماء..

قال حسام:

- صدقت، أجمل ما في الحياة هو الانتماء..

- لذلك فسعادتي مشروطة بالانتماء إليك..

قُلْتُ ذلك ربما لكي أقول له شكراً على ما يبذله من أجلي ومن أجل أمي عزيزة.. يا للقلب المجنون! يا للقلب المجنون! ما فتئ يتطلع إلى العصيان الأبدي. وما فتئ يسومني ذلك الشوق التليد، ذلك الشوق الذي يجمعني وحساماً في موكب من الصبايا كي تتساقط علينا الورود. وها هنّ ذوات الخمار الجامع لألوان الطيف السبعة يستقبلن مقدمي السعيد. هناك ثمرٌ وحليب وخاتمٌ وإمامٌ وقُبُلات وعيد. وهناك أرباضٌ رائعة للأماني... ضحكت فتردد في القلب ترجيع الألحان، وها هو ذا الذي طلبت الانتماء إليه يُحاصِرُني بسؤال منذر عسير:

- ربا.. هل تجيبين طلباً لي بمنتهى الصدق؟

تردّدْتُ وتوجّسْتُ ولكني تمتمْتُ:

- أيَّ طلب تقصد؟

- أجيبي أولاً. هل يكون جوابك صادقاً؟

- أجل يكون جوابي صادقاً..

صمت ثم وصلني صوته الصادق:

- هل تقبلين الزواج بي إذا طلبتك لذلك؟..

في هذه اللحظات. قال القلب بكل اللغات مرحى مرحى! بيد أنّ كائناً آخر قال منذراً: خُطوة واحدة إلى الأمام وتشتعل فيك النيران. أما أنا فقد ابتسمتُ وضحكتُ وبكيْتُ. لأول مرة يُبشِّرُك الإعصار بالحسنى. أيتها الأقدار عُودي إلى عرش سلطانك فلقد رضيت رضيتُ. ولكن من أنا حتى أرتفع دُفعة واحدة إلى الفردوس!!؟ عليّ أن

أسلُك شعاب الوجد والمجاهدة كي أرتقي إلى مقام الرؤية والإشراق. وعليك يا أيها القلب ألاّ تتآمر عليّ فأقْنع بالمكوث في سدة السماء الأولى. وعليّ أن أضع الساعة أول لبنة في قصر الذّات الوليد.

والتفتُّ إلى حسام الحبيب. كان القلب يُنْذِرُ ويستغيث! وكُنْتُ عازمةً على الاستشهاد:

- حسام.. هل تريد جواباً لا رجعة فيه؟..

- نعم يا رُبا.. لارجعة فيه..

- لا يا حسام.. رُبا اليوم تحتاج إلى رحلة أخرى..

كان الفؤاد يبكي وكُنْتُ أبتسِمُ باعْتِدادٍ. وكان طعم الاستشهاد يطبع بصري بالسلام الأبدي.

لم يتكلم حسام بعد جوابي ولم يكن عنيداً كعادته. بل طَفِرتْ عيناه وأصيبت شفتاه برجفاتٍ حزينة قطّع منظره شرايين قلبي فصحْتُ به هامسةً:

- أنت أخي يا حسام..

صمتَ قليلاً. ثم قال وهو يمسح دموعه:

- أجل وأنت أختي العزيزة.

قلت له وطعم الاستشهاد يغرس رايات النصر على آخر الأرباض في ذاتي:

- لنلْحقْ يا أخي بأمينة وفاطمة فقد تأخرنا عنهما كثيراً..

وسرنا تتعقَّبُنا أجراس تتكلم عن اندحار القلْب وميلاد الرضوان....

منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية

- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.
- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبد الباسط بدر.
- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.
- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي (الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة الرواية).
- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.
- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.

١- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبد الدايم.

١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو (الرواية الفائزة بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية).

١- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.

١- الواقعية الإسلامية في رويات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.

١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د.جابر قميحة.

١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.

١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

١٨- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

١٩- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢٠- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة بنت سويد الحمد.

٢١- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٢- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.

سلسلة أدب الأطفال:

١- غرد يا شبل الإسلام، شعر، محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي، أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل، يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور، د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي، شعر، أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب، فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين «مجموعة قصصية للأطفال من الأدب التركي» تأليف: علي نار، ترجمة: شمس الدين درمش.

● **تطلب من مكاتب رابطة الأدب الإسلامي العالمية:**

١ ـ مكتب المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ ـ ص. ب ٥٥٤٤٦
هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨ ـ ٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

٢ ـ مكتب الأردن: عمان ١١١٩٢ ـ ص.ب ٩٢٣٠٨٤
هاتف / فاكس: ٥٦٢٠٩٣٥

٣ ـ مكتب مصر: ص. ب ٨١ ـ باب اللوق ـ القاهرة ـ ١١٥١٣
هاتف وفاكس ٧٩٦١٥٠٢

٤ ـ مكتب المغرب: ص. ب ٢٣٨ وجدة ٦٠٠٠١
هاتف / فاكس : ٥٠١٩٢٥

تحت الطبع:

ديوان «أقباس»، طاهر محمد العتباني.

الخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة، د. كما لسعد خليفة.

بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلاميات.

بحوث ندوة تقريب المفاهيم عن الأدب الإسلامي.

الأعمال الفائزة في مسابقة ترجمة الإبداع من آداب الشعوب الإسلامية (ستة كتب).

الأعمال الفائزة في مسابقة الأدبيات الإسلاميات (١٠كتب).

الأعمال الفائزة في مسابقة أدب الأطفال التي أجرتها الرابطة، وهي:

- ٣ مجموعات شعرية.
- ٣ مجموعات قصصية.
- ٣ مسرحيات.

المؤلف في سطور

الاسم: سلام أحمد إدريسو

تاريخ الميلاد ومحله ١٩٦١ - القصر الكبير - المغرب.

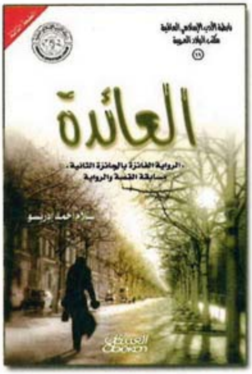
الشهادات الدراسية:

١- الإجازة في الآداب من كلية الآداب في الرباط عام ١٩٨٥م.

٢- دبلوم الدراسات المعمقة - كلية الآداب فاس - عام ١٩٩٣م.

- فاز بالجائزة الثانية في مسابقة الرواية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية عن روايته العائدة.
- نشر رواية أخرى بعنوان طوق النورس
- وله إبداعات شعرية وقصصية وكتابات نقدية في الصحف والمجلات.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

العنوان: إقليم العرائش - القصر الكبير - القطانين - عدة رقم ١١١ - المغرب.



تصوِّر هذه الرواية الفائزة في مسابقة الرابطة حياة المراهقين والمراهقات في معركة الالتزام والانفعالات.. الالتزام الذي يدعو إليه الإسلام في حياة الأسرة المغربية المسلمة.. وينشئ عليه الأب والأم أولادهما من البنين والبنات، وفي كفالتهم شاب نشأ يتيماً يعيش معهم كأحدهم.. لا يلتفت إلى ما حوله من المغريات، يسير نحو هدفه في إكمال دراسته... في الوقت الذي تتسرب فيه عوامل التأثير المضاد من الأندية التي تجمع الشبان والشابات وتقوم على إدارتهما وتوجيهها أيد يهودية متغلغلة في بعض نواحي الحياة الاجتماعية المغربية تحت شعارات براقة خادعة للناشئة.

حسام.. الشاب الذي يعيش في كنف الأسرة السعيدة يجد نفسه فجأة أمام محاكمة قاسية صدر فيها الحكم مسبقاً بالطرد .. وتنهال على وجهه بصفعة.. ويواجه بتهمة مراودة التي هو في بيتها (ربا) ابنة الحاج السعداوي صاحب الفضل والإحسان؟!

العائدة الرواية التي لن تترك قرءاتها حتى تنتهي منها.. بل ستعود إلى قراءتها إذا انتهيت!!.

ISBN:978-9960-54-517-2
9789960545172
ORD:000421-3

موضوع الكتاب: القصة العربية
موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com